

HANI EL SALMY



رواية

فَتَى الكَنِيْسَةِ

هاني السّالْمِي



paradise
BOOK STORE

فتى الكنيسة

رواية

هاني السالمي

(#)

أنا الفتى أنطون أبو العلا، كنت سوف احصل على لقب [فتى الكنيسة] يوم ميلاد المسيح، فكان من مهمتي لأحصل على هذا اللقب أن أجهز يوماً للاحتفال بيوم الميلاد، وقد شرعت من أول شهر أكتوبر بالتحضير لهذه المناسبة، كانت أمي جان دراك، وأبي ميشيل وأختي ماري، يساعدوني للحصول على هذا اللقب.

لكن دخلت الحرب في أول أكتوبر، ظننا: إنها أيام وتنتهي، كما كان يحدث في الحروب السابقة، لكنها كانت تشبه فيل ضخم مجنون فاق من النوم بجنونه، وصار يحطم كل ما يراه، لم يبق أي شجرة أو بيت أو شارع وإلا حطمه.

نزلت قنبلة على الطابق العلوي من بيتنا ولحسن حظنا كنا نجلس في الطابق السفلي، فأشار لنا أبي: أن نذهب جميعاً، إلى الكنيسة في مكان عمله، أبي طبيب عظام، حملنا بعض ملابسنا وبعض الطعام، وكنا نتوقع أنها أيام ونعود للبيت.

عندما وصلنا إلى الكنيسة وجدنا كل العائلات المسيحية التي تعيش في قطاع غزة، كانت تحمل نفس تفكيرنا، كانت فرصة جميلة وبها حميمية كبيرة أن نتجمع في مكان واحد، بين جدران الكنيسة وتحت سقفها المزين بلوحات العذراء والطفل عيسى، ومنفوش عليها بعض جمل من كتبنا، كانت الشموع طويلة وحمراء لكن العتمة اكلت كل ضوء الشموع، وبدأ الطعام ينفذ، وكان الخروج من الكنيسة لتشري أي شيء كان خطر كبير.

الكنيسة كانت جزء من المشفى المعمداني وهو أقدم مشفى في غزة، كان على المصابين والشهداء أن يمروا من امامنا قبل الدخول إلى المشفى، فجأة وبدون إنذار قصفت الطائرات مدخل المشفى، منظر لا يوصف بسوى بكلمة واحد أكثر من ألف جثة ملقاه في الممر أمام الكنيسة.

جلسنا أكثر من ستة ساعات ونحن فاقدى السمع من صوت الصاروخ، نتكلم بالإشارة، جلس الجميع تحت تمثال العذراء الطويل، وصرنا ندعو أن ننجو من هذه الليلة.

في الصباح جاء أبي ومعطفه الأبيض أصبح أحمر من دم المصابين والشهداء، وكان وجهه شاحباً، قال لأبي: فقدنا الكثير من عائلاتنا وأصدقائنا، وقد أمرنا أبونا أن نرحل إلى جنوب قطاع غزة، إلى

مخيمات النزوح هناك، لأن العدو هدد بقصف كل الأماكن دون رحمة وبدا يقصف بعض الكنائس في غزة.

اتفق أبي مع شاحنة كبيرة، لنحمل لنا ملابسنا وبعض حاجيتنا من البيت، لكنه أبي لم يقدر مرافقتنا بهذه الرحلة الجديدة معنا. بسبب عمله كطبيب وعليه البقاء ليكون بالقرب من المصابين.

أبي جاء مسرعاً، وقال: خذوا كل شيء معكم، احملوا ملابسكم، لا تنسوا ألعابكم، ضعوا دفاتركم وكتبكم وأقلامكم في حقائبكم. اربطوا فراشكم وأغطيتكم، لا تنسوا أي شيء قد لا نعود إلى بيتنا مرة أخرى. وفي هذا اليوم تعرفت على شعور القلق، كنت دائماً أقول ما هذا القلق الذي يتداوله الناس مع بعضهم البعض، حتى الطيب كان يقول لأمي عندما تزوره خفي في من قلقك، الآن أنا قلقان أن أنسى شيء مهم لي عندما نذهب إلى مكان جديد، كان وقتها أبي وامي يداران في البيت كنحنلتنا حول كل شيء ويصدران طنين لا أفهمه.

أحضرت ورقة وقلم وكتبت قائمة بالأشياء التي سوف أحملها معي.

[عقد الصليب، دفتر الذكريات، صورتي بالمدرسة، حذائي الأبيض، ثلاث بناطيل، ثلاث قمصان، ثلاث جوارب، نظارتي الشمسية، جوالي، فرشاة أسناني، فرشاة شعري، دواء مسكن، مضاد حيوي، دواء السعال، كأسى الخاص، رواية البرزخ]

وبعد ذلك صرت أنا النحلة رقم ثلاثة مع أبي وامي أدور حول الأشياء مع صوت طنين عالي، بعد ساعة من الطنين جاءت شاحنة كبيرة وصرنا ننقل أشياءنا فوقها.

أنه صدقوا عندما قالوا: إنها ليلة نزوح، ولا يليق لها إلا كلمة ليل لأنها لحظات مظلمة، تحبس دموعك، تصبح شاحب اللون، لا تبتسم، كل شيء ثقيل أثقل من فيل ضخم سقط في الوحل، كأنها كنفذ له أشواك تدخل في جلدك وتجعلك تصرخ من الألم.

ليلة النزوح تنزع الذكريات السعيدة ولا تبقى سوى الحزينة، لا تبقى داخلنا سوق قصص الغول أبو رجل مسلوخة.

كأنني في زاوية هذا العالم الصاخب، حيث تتعالى الأصوات وتختلط القيم وتتقاطع الطرق، يحتاج الإنسان إلى مرآة داخلية يرى فيها ذاته لا كما يراها الآخرون وقت النزوح كأنه تعبان كبير ينسلخ عن جلده، بل كما يريد لها أن تكون. فالتحمل ما يحدث معنا ليست مقاماً يُمنح، ولا صفة تُفاس بعدد التصفيقات أو أضواء الشهرة، بل هي حالة داخلية، تُبنى من صمت، ومن صدق المواجهة مع النفس.

كم مرة وجدنا أنفسنا نهار تحت نظرات الآخرين؟ كم مرة سمحنا لكلمة عابرة أن تزرع في قلوبنا الشك وتقتلع جذور الثقة؟ ذلك لأننا نسينا أن العظمة الحقيقية تبدأ من الداخل، من إيمانٍ راسخ بأننا جديرون بالحياة، جديرون بالمحاولة، جديرون بالسقوط والقيام من جديد.

العظيم ليس من لم يسقط أبدًا، بل من لم يفقد نفسه حين سقط. هو من سمع ضحكات الساخرين، وتجاوزها. من فُوبل بالجحود، فاختر أن يظل كريم النفس. من وقف أمام نفسه وقال: "أنا كافٍ، حتى لو قالوا عكس ذلك."

في عالم يضع المقاييس في الجيوب، ويصنف الأرواح حسب العناوين، يكون الانتصار الأكبر أن تحب ذاتك دون شروط. أن تنظر في عينيك وتقول: "أنا أحاول، وهذا وحده يكفيني." فليس في العالم من قوةٍ أعظم من شخصٍ يصادق نفسه، يُرَبِّت على قلبه، ويمضي. ليس غرورًا أن ترى في نفسك عظمة. بل هو نجاة. لأن من لا يرى نفسه عظيمًا، سيعيش دومًا تحت رحمة الأحكام الخارجية، وسينهار عند أول ريح. أما الذي رأى النور في داخله، فلن تطفئه عتمة، ولن تكسره التجربة، بل سيخرج منها أكثر اتساعًا، أكثر وعيًا، وأكثر حبًا للحياة.

في هذه الحياة، ستصادفك الهزائم، وسيختلج عنك البعض، وستشعر أحيانًا أنك وحيد وسط الزحام. ولكن حين تكون عظيمًا في عيني نفسك، لن تشعر بالهوان. بل ستنهض، وتكمل، وتبتسم، وتمنح من حولك شيئًا من نورك الداخلي.

كن عظيمًا في عين نفسك، لا من أجل الكبرياء، بل من أجل البقاء. لا لتتفوق على الآخرين، بل لتتفوق على ضعفك، على خوفك، على الصوت الذي يقول لك إنك لا تساوي شيئًا. كن عظيمًا لأنك تستحق، لأنك صمدت حين سقط الآخرون، لأنك حلمت حين توقّف الجميع عن الحلم.

وفي نهاية كل ليلٍ طويل، ستدرك أن العظمة لم تكن يومًا في الخارج، بل كانت دومًا هناك... في قلبك.

ذهب الشاحنة عند الكنسية، وكان ينتظرنا بعض العائلات المسيحية، لتركب معنا وتشاركنا رحلة الزوج، منظر الشاحنة صار مخيفًا من كثر ما حُمل عليها من الأشياء، ركبنا فوق الحاجيات وقبل أن تتحرك الشاحنة، ظهر أبونا [يوحنا] يقف بجانبه أبي وثلاث رجال من حراس الكنيسة، جاؤوا يدعوننا فقال أبونا: كثيرا تكون نفوسنا حربا على أهوائنا وشهواتنا، وأود أن تكونوا صانعي سلام في أنفسكم، ويتحول من فيكم من تنافر وخصام إلى وحدة سلام، لكن عليكم أن تصبروا وأنتم تصنعوا السلام لأنفسكم ومحبي جميع عناصر التي تتحكم في حياتكم.

فهمت وقتها أننا ذاهبين إلى رحلة صعبة، سوف نصنع السلام بأيدينا ولن يحضره لنا أحد على طبق من فضة. شعرت وقتها بوجع بمعدتي.

- لوحت له: يا أبونا، كنت سوف أحصل على لقب الكنيسة بعد شهر من الآن، في يوم الميلاد، وأنا الآن أترك كل شيء.
- يا ولدي لا أقدر أن أمنحك اللقب وإلا عندما تعود، نحن ننتظركم أن تعودوا وأنتم تحملون انتصاركم على الحياة.

أبونا حنًا: عطر الإيمان في رائحة البارود في غزة، حين ضاق البحر بالمرائب، والسماء بالقنابل، والأرض بالخيام، بقيت الكنيسة المعمدانية واقفة كما كانت دومًا: بيتًا للرحمة، وملأدًا للأرواح

المهدّدة. وفي قلبها، كان يقف أبونا حنّاً، القس المتعبّ الذي لم يتراجع خطوة، ولم يبذل ثوبه الأسود رغم الغبار، لأنه آمن أن الله لا يترك بيته، وأن القس هو آخر من يغادر المذبح.

في أيام الحرب، حيث الهواء ثقيل بالرماد، ينهض أبونا حنّاً من سرير خشبي في غرفة صغيرة داخل الكنيسة، يمسح وجهه بالماء البارد، ويقبل صليبه الخشبي. يهمس لنفسه كما يفعل كل يوم: "هذا بيت الرب، وسأبقى فيه ما بقي في قلبي نفس". يخرج بهدوء، يفتح بوابة الكنيسة، ويستقبل أول شعاع شمس بتنهيدة عميقة، ثم يقرع الجرس، لا لاستدعاء المؤمنين فحسب، بل ليذكر المدينة بأن هناك مكاناً لا تزال فيه الحياة ممكنة.

أبونا حنّاً ليس فقط راعياً روحياً، بل أباً حقيقياً لكل من احتفى بجدران الكنيسة. كان يمشي بين العائلات المسيحية النازحة التي لجأت إلى الكنيسة هرباً من الموت، يعاين أحوالهم، يرتب على أكتافهم، ويوزع عليهم الخبز والبطاطين والدواء بنفسه، قائلاً لهم: "الرب معكم، كما كان مع إيليا في البرية، لن يجوعكم، ولن ينساكم." لم يكن ينتظر دعماً دولياً، ولا مساعدات من الخارج، كان يشتري ما استطاع من قوت المؤمنين، ويوزّعه بابتسامة تسابق يده.

وعندما كان يدخل قاعة الصلاة، كان يحمل زجاجة صغيرة من العطر المقدس، يرشّ منها على المقاعد الخشبية المهشّمة، وعلى وجوه الأطفال المتعبين، كأنه يرشّ الأمل. يشعل الشموع واحدة تلو الأخرى، وفي كل شمعة دعاء، وفي كل لهب رجاء. وكان يردّد: "النور يسطع في الظلمة، والظلمة لم تدركه.

أيامه لم تكن سهلة. الكنيسة تضررت أكثر من مرة. النوافذ الزجاجية الملونة تهشّمت، والجدران تزعزعت، ومع ذلك، رفض أن يتركها. في إحدى الليالي، حين اقترب القصف حتى صار الصوت يرتجّ داخل صدره، ركض إلى مذبحه، قرأ من المزامير بصوت مرتفع، وقرع الجرس بيده: "الله لنا ملجأ وقوة، عوناً في الضيقات وُجد شديداً." لم يكن يقاتل بسلاح، بل بايمان لا يلين.

كان يُعدّ وجبات الطعام بنفسه. يلف الخبز في مناديل بيضاء، ويقدمه للأطفال كمن يقدم جسد المسيح. كان إذا رأى أحدهم حافياً، خلع نعله وأعطاه إياه. وإذا رأى أمّاً تبكي، جلس بقربها، وقال: "مريم بكت تحت الصليب، لكنها عرفت أن القيامة قريبة." وكان يُكثر من تلاوة الآيات، يُحفظها من تعب، وينثرها كما يُنثر البخور.

في الليل، لم يكن ينام بسهولة. كان يسهر مع الشموع المضيئة، يكتب آية يومية بخط يده، يعلقها على باب الكنيسة ليقراها من يدخلها مع الفجر. آيات مثل: "طوبى للحرانى، لأنهم يُعزّون"، "لا تخف، لأنني فديتك، دعوتك باسمك، أنت لي." وكان أحياناً يعزف على آلة عود قديمة أغنية تراثية تنساب إلى زوايا المكان وتلطّف وجع الساكنين.

ذات مساء، جاءت إليه فتاة صغيرة، وقالت له: "أبي لم يعد من يومين، وأنا أفتقده، وأخاف." ضمّها أبونا حنّاً إلى صدره، وهمس: "اكتبي له رسالة، واكتبي فيها أنك قوية، وسيقرأها الله أولاً، قبل أن تصله." ومنذ ذلك اليوم، بدأت الطفلة تكتب، وأصبحت رسائلها أناشيد صغيرة يتلوها الأب حين يجلس الناس حوله.

وكانت يد أبونا حنّاً لا تهدأ. حين لا يوزع الطعام، كان يرتب البطانيات، أو يرفع سقفاً، أو ينظف المذبح. وحتى حين ينهكه التعب، كان يصبر على أن يقرع الجرس مع كل صلاة. الجرس، الذي صار في تلك الأيام رمزاً للحياة، لا للطقس فقط، بل للوجود، لكل ما هو مستمر رغم كل ما ينهار. كان أبونا حنّاً يقول: "الحرب تشوّه المدن، لكن لا يمكنها أن تشوّه قلوبنا. وإن فقدنا الحجر، فإن الروح باقية."

كل العائلات الموجودة داخل جدران الكنسية هم عاشوا في غزة، تلك البقعة الصغيرة المنكوبة والجميلة في آن، حيث يُولد الحزن كل صباح على أنقاض الأحلام، ويُغنى الأمل في زوايا البيوت رغم الضيق، تعيش العائلات كجمر تحت الرماد، محتفظة بحرارتها الداخلية، تلمع دون ضوء، وتكبر في حضن الطمأنينة.

عددهم قليل، لكن حضورهم عميق. لا تُفاس بعدد أفرادها، بل بجورها في الأرض، وإسهامها في نسيج الحياة. برغم قلة عددها، تشكّل خيطاً ناعماً ومتيناً في القماش الثقافي والروحي لهذه المدينة المحاصرة. يعيشون في أحياء قديمة مثل حي الزيتون، حيث الكنائس التاريخية، أو في أماكن متفرقة من المدينة، متلاصقة جدران بيوتهم كما تتلاصق القلوب في صلاة.

بيوتهم، وإن بدت بسيطة من الخارج، تُخبئ في داخلها دفء الأجيال. مدخل الدار قد يكون ضيقاً، لكنه يُفضي إلى قلب واسع. على الجدران، تتدلّى أيقونات ذهبية للعرّاء والقديسين، مصابيح صغيرة، وإن غاب عنها التيار الكهربائي، لا تنطفئ رمزياً. الكنبه مغطاة بأغطية مشغولة يدوياً، وعلى الطاولة إنجيل مفتوح، وزهرية فيها وردة صناعية لم تذبل منذ أعوام، كأنها تقول: الجمال لا يحتاج إلى ماء كي يعيش.

في قلب كل بيت في غزة، هناك طقس يومي من المحبة. الأسرة تجتمع حول المائدة ليس فقط للطعام، بل لتبادل القصص، لتضميد الأحلام، ولمقاومة الوحشة. يُعدّون الطعام بأيديهم، وغالباً ما يُحضرون وصفات فلسطينية تقليدية، لكن بنكهات احتفالية خاصة. في الأعياد، تشتم رائحة المطبخ من الزقاق: كعك العيد المحشوّ بالعجوة أو الجوز، فطائر السبانخ، حساء العدس في الشتاء، والخبز المحمص بالزيت والزّعتر.

وحين يأتي الميلاد، تبدأ الطقوس قبل أسابيع، كما لو أن كل بيت يُعيد ترتيب قلبه لاستقبال السلام. تُنظف البيوت بعناية، وتُخرج الزينة من الصناديق، وتُنصب الشجرة في الزاوية الأقرب للشباك. قد لا تكون شجرة فاخرة، لكن فيها ما يكفي من حب الأطفال. يُعلّقون كرات لامعة ونجوماً ذهبية

وصورًا من الأعوام الماضية. أحيانًا يكتبون رسائل صغيرة، ويضعونها تحت الشجرة بدل الهدايا، ويطلبون فيها أشياء بسيطة: أن يعود التيار الكهربائي، أن يُشفى الجدّ، أن يتوقف القصف، أن يعود صديق مهاجر.

الأزياء في هذه المناسبات لها طابع خاص. الأطفال يرتدون فساتين بيضاء أو حمراء، أولاد وفتيات يتسابقون إلى الكنيسة في الصباح، والبنات يُسرحن شعرهن بعناية كأنهن ذاهبات للقاء ملاك. الكبار أيضًا يحرصون على ارتداء أجمل ما لديهم، حتى لو كانت الملابس قديمة. في العيد، يرتدي الجميع ثياب الكرامة، لا فقط القماش.

أما كنيسة المعمداني؛ إنها البيت الكبير الذي يجمع الجميع. تُقرع الأجراس وتُضاء الشموع، وتُرفع الصلوات من أجل غزة وأطفالها، من أجل المرضى والمخطوفين، من أجل العالم الذي يبدو بعيدًا جدًا أحيانًا.

الحياة اليومية للعائلات في غزة ليست سهلة. فالحصار لا يفرق بين طائفة وأخرى، والقصف لا ينتقي منازل المسلمين دون المسيحيين. لكنّ هذه العائلات تعيش بنوع من السلام الداخلي. لا كثير من الجلبة، ولا صراخ في الأزقة. فقط صبر طويل، وكبرياء هادئ، وأمل يُشبه زهرة صغيرة تنمو بين الركام. إنه نسيج ناعم لا تراه العين، لكنه موجود في كل همسة، وكل نظرة احترام في الطريق.

في زمن الحرب، تصبح تفاصيل الحياة أكثر قداسة. العائلات تُعلّق الصليب في مدخل البيت ليس فقط كرمز إيمان، بل كدعاء للحماية. في الأعياد، يُضيئون الشموع للذين فقدوهم، وللذين في الشتات، ويُغنون الترانيم بقلوب مجروحة لكنها مؤمنة. يسألون الله أن يُعيد الأيام الجميلة، لا لأنهم عاشوها بالكامل، بل لأنهم لم يتوقفوا عن الحلم بها.

أن تكون مسيحيًا في غزة، يعني أن تحمل نورًا صغيرًا في جيب قلبك، وتمشي به وسط العتمة. أن تؤمن أن الشجرة يمكن أن تزهر على حافة الجدار، وأن الطفل الإلهي لا يولد فقط في بيت لحم، بل في كل بيت تُشعل فيه الأم شمعة، ويقول فيه الأب صلاة، ويضحك فيه الأطفال رغم الحرب.

(#)

رغم قصر المسافة التي قطعتها عائلة أنطون هو أمه وأخته ماريا من بيتهم إلى العيش في مخيمات النزوح في منطقة الجنوب بالقرب من شاطئ البحر، عند لسان بحري بالقرب من تلة العشاق...

هذه المسافة التي لا تتجاوز خمس عشر كيلو من بيتهم بالقرب من كنيسة المعمداني إلى الجنوب، والعيش أربعة مئة وخمسين يوماً لا ترى الكنيسة ولا تمارس طقوسك الدينية لم تأخذ معك أي شيء سوى ملابسك وبعض فراش وأغطية وبعض صحن ومعالق وصندوق خشبي كبير به أوراق الولادة وبطاقات الهوية شهادات المدرسة وشهادة التعميد في الكنيسة، أعتبرها رحلة كاملة التفاصيل، كأنك في رحلة اكتشاف جغرافيا وتاريخ وعادات وأناس وعائلات، وأنت تعيش معها كأنك تولد من جديد.

أنه الاكتشاف العظيم وسيبقى فارقا فيما سوف أعيش من باقي حياتي، ومن أهم هذه الاكتشافات أن تقاوم لتعيش تحت قطعة قماش تحارب أشعة الشمس وقساوة البرد، وتزيل عن ملامحك ملوحة البحر.

يطاردني الحزن كأنني سرقت منه شيئاً، لا كضيف ثقيل، بل كسيد بيتٍ أزلي، يسكن في الزوايا التي لم تبُلِّها الشمس، وفي الكلمات التي لم أجرؤ على قولها. كلما حاولت الفكك منه، شعرتُ وكأنني مدين له، كأنني اقترفت في حقه خطيئة لا أعرفها، ولا يعفيني منها بكاءً أو صلاة.

كأنني، في لحظة ما، انتزعتُ من الحزن حقه في العواء، ضيَّعت عليه نحيباً كان يليق به، أو حجبت عنه مشهداً يليق بجراحه. وكأن حزني ليس حزني وحدي، بل إرثٌ هائلٌ من الوجد، تنقلتُه أرواح الذين رحلوا، وتركوه على كنفني دون وصية.

أسير في الأزقة، في الشوارع التي تنظر دورها في القصف، في العيون... فأراه يسبقني. ألتفت إليه، فلا يهرب. يبتسم لي كأبٍ يعرف أنه لن يُغفر له الغياب، لكنه يعود رغم ذلك، متأكداً من أنني لن أرفضه. أحياناً أعتقد أنه لم يكن يلاحقني، بل كان يسبقني، ويفرش طيفه في طريقي، ليعلمني كيف أتَهجِّي الألم دون أن أنكسر، كيف أتَنفَس الحنين دون أن أُخنق.

الحزن لا يصرخ... هو فقط يجلس بصمتٍ جوارِي، يضع يده على كتفي حين أبالغ في التظاهر، ويهمس لي: "أنا هنا، لا تهرب مِنِّي، فأنا الوحيد الذي يعرفك حين لا يعرفك أحد". هو ليس عدوِي، لكنني أخاف صداقته، أخاف أن أرتاح إليه، أن أعتاد حضوره، أن أنسى طعم الحياة بدونه.

هل سرقت من الحزن شيئاً؟ ربما سرقت لحظة كان ينبغي أن أبكي فيها، فضحكت. ربما خذلته حين ادّعت القوة، حين قلت: "أنا بخير"، وكان ينتظر مني أن أقول: "أنا أحتاجك، ابقي قليلاً". وربما... وأنا أكتب الآن، أردّ له بعضاً مما سرقت، أعيده إلى مكانه الطبيعي بين السطور، في الزفرات، في ارتعاشة الحرف.

الحزن لا يريد أن يربح... هو فقط لا يريد أن يُنسى. يريد ممّا أن نحفظه كما نحفظ أسماء الذين أحببناهم ثم رحلوا، أن نتذكّره كما نتذكّر رائحة البيوت القديمة، وأغاني الجدّات، وساعات الخسارات الأولى. يريد ممّا أن نعترف بأنه كان هنا، وأنه غيرنا، وأعاد ترتيبنا من الداخل، حجراً حجراً.

نعم، يطاردني الحزن كأنني سرقت منه شيئاً... وربما سرق هو قلبي أولاً، ثم عاد يطالبني بالباقي

لكن شيئاً ما في قلب الفتى لا ينطفئ. كل صباح، ينهض قبل الجميع، يخرج من الخيمة، ويركض في المساحات الفارغة بين الخيام. يمدّ ذراعيه كمن يُحلق، ويهمس: "يسوع، هل أنت هنا؟". لا يسمع جواباً، لكنه يشعر أحياناً بدفء غريب على كتفه. وربما كان هذا هو الإيمان: أن تواصل النداء، حتى وإن كان الصدى خافتاً.

ذات مساء، رأى الفتى طفلاً يبكي وحيداً عند سور المخيم. اقترب منه وسأله عن اسمه، فاكتشف أنه مسلم من حي الشجاعية، وأنه فقد والده. جلس بجانبه، وأخذ يروي له عن يسوع الذي كان طفلاً مثله، فقيراً، لا يملك بيتاً، ولا يملك وسادة ليضع رأسه عليها. قال له: "لكن الله أرسل إليه نجماً ليدلّه، وربما يُرسل لك نجماً أيضاً." ابتسم الطفل، ومسح دموعه، وقال: "وهل يمكن لي أن أرى ذلك النجم؟" ردّ الفتى: "نعم، إذا أغلقت عينيك جيداً."

منذ ذلك اليوم، صار الفتى يكتشف أن المسيح لم يبقَ في الكنيسة، بل تبعه إلى الخيمة. المسيح لا يسكن الأماكن، بل يسكن القلوب. وهو الآن يسكن خيمة أمه، ويسكن فم جدته حين تصلي، ويسكن حضن الأطفال المكسورين وهم يتشاركون البطانية في الليالي الباردة.

بدأ الفتى يصنع من الطين تماثيل صغيرة للعذراء والقديس يوسف، ويضعها على حجر في زاوية الخيمة. أطلق على المكان اسم "المذبح الصغير"، وكان يجلس أمامه كل مساء، يشعل شمعة خافتة، ويهمس: "يا يسوع، كن معنا، نحن تلاميذك في خيام الشتات." لم يكن يطلب الكثير، فقط القليل من الضوء، القليل من السلام، ووجهًا يشبه وجه الأب متى ليقراً له بصوت رخيم.

حياة الفتى لم تعد كما كانت، لكنه تعلّم كيف يحمل الكنيسة في داخله، لا في جدران حجرية. صار يعرف أن الإيمان ليس في الرخام ولا في القباب، بل في يد تُعانق، في خبز يُقسم، في طفلٍ يُسكت جوع أخيه قبل أن يسكته هو.

حين جاء عيد الميلاد، بكى سرًا. لم تكن هناك شجرة، ولا أضواء، ولا زيارات. فقط شتاء صامت، وخوف يتسلل تحت الأغطية. لكنه في قلبه، رأى المسيح يولد من جديد، لا في مغارة، بل في الخيمة. رأى أمه تحمل الحطب لتشعل نارًا صغيرة، كأنها مريم في ليل بارد. رأى الأطفال من حوله كالرعاة، والجنود على الأسوار كهيرودس، لكنه لم يفقد الأمل، لأن في داخله نجمًا لا يُطفأ.

كتب على قطعة كرتون صغيرة: "ولد هنا فتى، فكان السلام"، وعلّقها على عمود الخيمة. مرّ العابرون، فقرأوها، بعضهم ضحك، وبعضهم تأمل، لكن الكلمة زرعت نورًا في العيون. صار المارة يلقبونه بـ"الفتى"، لأنه لا يكفّ عن الصلاة، ولا يتوقف عن الحديث عن يسوع، حتى وسط القصف، حتى عندما يُمنع الخبز والماء.

في مخيم النزوح، لم يكن فقط فتى مسيحيًا. كان شاهدًا على أن المسيح لا يُحب من بعيد، بل ينزل إلى الجراح، يلمس الفقر، ويتكى في خيمة، ويشارك الأطفال ضيقهم. صار الفتى يشبه حبة قمح تنمو في قلب الصقيع، وتشهد أن الله لا يترك الذين يُنادونه من وسط الغبار.

"الطبيب الذي تأخّرت دموعه" في الممرّ الضيق من مشفى المعمداني، كان الدكتور ميشيل، والد أنطون، يركض بين الأسرّة كمن يُطارِد شيئًا ضائعًا في الوقت. الدماء في كُمّه، والوجع في عينيه، والاسم الوحيد الذي لا يغيب عن ذهنه كان: أنطون وعائلته والرحلة المجهولة التي تنتظرهم في النزوح إلى الجنوب.

في لحظة الفزع الأولى، حين تدحرج الرعب فوق الحيّ، أمسك بيد زوجته ودفعها نحو الجنوب مع الأطفال. لم يكن قراره نابغًا من شجاعة، بل من واجب أعمى، فالمشفى آنذاك لم يكن فقط مكانًا للعمل، بل جبهة كاملة تئنّ فيها الحياة وتقاوم. نظر إلى عائلته وهي تبتعد، حمل في قلبه صورة أنطون بوجهه النحيل وشعره المشعث، ثم عاد إلى الطابق العلوي لئِنقذ من بقي.

لم يكن سهلاً على طبيب أن يرى جسد طفل ممزق ويمنع نفسه من الانهيار. لكنه في كل مرة يضع فيها كمّامة جديدة، كان يرى عيني أنطون بين الضمادات، ويسأل نفسه: "هل يشعر بالبرد الآن؟ هل يأكل؟ هل يبكي؟ هل يذكرني؟"

لم تكن الخسارة فقط في الأطراف المبتورة ولا في الصراخ المستمر من غرف العمليات، بل في هذا الغياب الطري، المؤلم، الذي جعل الدقائق أثقل من الصخور.

في الليل، حين يهدأ زخم الإصابات، يجلس ميشيل قرب النافذة المطلة على الكنيسة التي تهدمت نوافذها، ويهمس: "يا يسوع، أنقذ عائلتي كما أنقذتني من هذا الجنون." يرى صورهم واقفون تحت مذبح الكنيسة يحملون شمعة الميلاد، ويسأل نفسه: "كيف أشرح له أنني اخترتُ البقاء؟ كيف أفنعمهم أنني لم أتخلَّ عنهم؟"

كان يحلم أن يعايد ابنه أنطون وبنته ماريا في العيد القادم، أن يشتري له دراجة صغيرة، ولها أوتار جديدة لقبثارتها، أن يضحكاً معاً في شرفة البيت القديم. لكنه الآن لا يملك سوى الهاتف الصامت، وخيالهما نائمين تحت بطانية خفيفة في خيمة ما، ينتظر أباهما أن يأتي من بعيد.

رغم الجراح، كان ميشيل يجد في جسد كل طفل جريح ملامح أنطون، وفي كل سيدة زوجته جاك دراك وفي كل طفلة ابنته ماريا، وكان يضمّ الجروح كمن يداوي عائلته كل مرة. لم يكن الطب فقط مهنته، بل صار طقساً للبقاء، لغة للمحبة، ورسالة يكتبها لعائلته كل يوم: "أنا هنا، يا أحبابي، أضمد هذا الوطن كي نعود إليه يوماً ونمشي آمنين."

الاشتياق في قلبه لم يكن بكاءً، بل ناراً تدفعه ليوصل. وفي كل خيط يُخاط به جرح، كان يسمع صوتهما يقول: "بابا، لا تتأخر... إننا بانتظارك."

وفي ليلٍ متأخر، نام الطبيب ميشيل على كرسيّ حديدي قرب غرفة العمليات، وتسَلَّل اللحم إليه كنسمة من السماء.

رأى نفسه يسير في ممرٍ طويل من نور، لا أصوات فيه ولا دماء، فقط صمت يشبه السلام. وفجأة، رأى أنطون واقفاً تحت شجرة زيتون، يرتدي قميصه الأبيض القديم، ويحمل شمعة مشتعلة بين يديه.

ركض نحوه، فتح ذراعيه، احتضنه كما لم يحتضنه من قبل، وقال له:

– تأخّرت كثيراً، يا أبي...

همس ميشيل وهو يدفنه في صدره:

– كنت أخيط الوطن لأجل عينيك...

كنت أضمد وجع الأطفال كي لا تشعر وحدك بالبرد.

نظر أنطون في عينيه وقال:

– أنا كنت أصلي من أجلك كل ليلة،

كنت أرسمك في دفاتري وتحت كل رسم أكتب:

"سيعود."

ثم انطفاً اللحم بهدوء، وعاد الطبيب إلى واقعٍ ملطّخٍ بالجراح...

لكنه في قلبه، صار يوقن أن الشوق دواء،

وأن اللقاء ممكن،

وأن طيف أنطون يكفيه ليوصل ضماد الحياة.

(#)

بدأت الشاحنة تتحرك، وبدأت الرحلة المجهولة لنا، ولا نعلم ما سوف نكسب منها، مرت من أمام تمثال [العنقاء] في ساحة وسط مدينة غزة، هذا التمثال الذي يدب في نفوسنا بمعناه الحقيقي، هذا الطائر الذي يعود من الرماد، ليرفرف بجناحيه مرة أخرى في الحياة. وهذه إشارة لنا سوف نعود.

وصلت الشاحنة إلى طريق صلاح الدين، كانت مئات الشاحنات تسير أمامنا بمشهد مهيب، والناس بملامح الحزن والخوف، وكان بعض الشباب يحملون سلاح يحاولون منع الشاحنات من النزوح والعودة إلى بيوتهم.

فجاءة جاءت طائرة وألقت صاروخا كبير عليهم. وصار حفرة كبيرة في الإسفلت، وكان عدد كبير من المصابين والقتلى في المكان.

كان سائق الشاحنة ماهرا، تفادى الحفرة بمهارة عالية، وسقط بعض الحاجيات عن الشاحنة، لكن لم يقدر أحد أن ينزل حتى يعيدها.

أن أول مهارة تعلمتها في هذه الرحلة أن تستخدم مهاراتك حتى لا تسقط في الحفرة، يبدو أن الحفر التي تنتظرنا في هذه الرحلة كبيرة وتحتاج كل المهارات الفردية ومهارات العائلة والأصدقاء.

نظرت إلى امي وهي تحضن اختي ماريا، امي معلمة في مدرسة الورديات لمادة الرياضيات، وقد حصلت على عدد من الجوائز في مهنتها وندبت للكثير من المؤتمرات العالمية لتطوير مادة الرياضيات في المدارس، وكان لها الفرصة أن تحصل على وظيفة في أي دولة أوروبية، لكنها كانت هي وأبي ضد فكرة الهجرة من غزة، وبقائهما هنا يؤكد بوجودها الأصليين في فلسطين، أما اختي ماريا تصغرني بخمس سنوات وهي تجيد العزف على القيثارة وتعلمته في معهد إدوار سعيد للموسيقى، وهي الآن تقبض على قيثارتها خوفا من أن يسقط من يدها عن الشاحنة.

بعد ثلاث ساعات من الحركة البطيئة للشاحنة، والموت في كل مكان، والناس تمشي بمسيرات طويلة يذكرنا بمشهد هجرة 1948 عندما خرج أجدادنا من بلادهم صوب مخيمات اللجوء في غزة ولبنان وسوريا والأردن والضفة الغربية، كل واحد يحمل ما يقدر عليه من الملابس والطعام، الحزن ينخر في ملامحهم.

وقفت الشاحنة أمام شاطئ البحر، بالقرب من لسان بحري في منطقة القرارة خان يونس، كان يوجد منزل متواضع وسط أرض زراعية، خرج منه السيد أحمد راضي، هذا الرجل كان يورد الشمع للكنايس، وهو استعد أن يستقبلنا للمكوث في أرضة فترة النزوح حين العودة.

بعد دقائق وقفت عدد من الشاحنات في نفس المكان، أيضا كانت تقل بعض العائلات المسيحية، قال بصوته الطيب: لا وقت عندنا للدلع علينا أن ننزل الحاجيات عن الشاحنات وننقلها إلى داخل الأرض الزراعية.

كان السيد راضي، عنده بيت متواضع به ثلاث غرف وحمامين، فأشار لنا أن تجلس كل النساء في غرفة والرجال في غرفة، حتى نبدأ نصنع لكل عائلة خيمة خاصة.

كانت أول أيام صعبة جدا في النوم والطعام ودخول الغرفة، فكان في غرفة الرجال حوالي خمسة عشرة والنساء مع الأطفال حوالي ثلاثين.

ومن الصعب أن تقابل أمك ولا أختك من الإحراج الموجود في المكان، ولا تأكل جيدا ولا حتى تنام جيدا، بسبب شخير الرجال، ومنهم يرفع صوت المذياع على الأخبار العاجلة التي تنقل تفاصيل الحرب، أما دخول الحمام لا بد أن تكون سريع جداً وإلا فتح عليك الباب وثم إحراجك بالخروج.

بعد عدة أيام جاءت شاحنة محملة بالأخشاب وقطع من النايلون الكبيرة القوية وكميات كبيرة من المسامير وعدد من المراحيض.

نادى السيد راضي: على الجميع المساعدة في تنزيل الحمل عن الشاحنة، فجأة تكتشف أنك تمتلك جينات شيال يعمل في الأسواق في بقالة لبيع الحبوب، تحمل كل شيء، وتقدر أن تمشي بما تحمله لمسافات طويلة، وتكرر هذا الفعل أكثر من مرة.

أمي وأختي أيضا تحولوا إلى شيالين صغيرين، يحملان قطع الخشب الصغيرة، والنايلون الخفيف، ومن ثم أشار السيد راضي: أن كل عائلة لها نصيب من الأخشاب والنايلون والمسامير وعليها أن تشرع في إنشاء خيمة، وتختار مكان في المزرعة لتسكن بها.

هرعت العائلات وأخذت ما يلزمها من الأخشاب والنايلون، أنا أيضا دخلت في الدائرة وحملت الأخشاب، أمي كانت تقف في مكان في المزرعة يطل على زرقة البحر، كان الجو بادرا، أخبرني امي أننا نريد أن نصنع خيمة على شكل مكعب لأنه أقوى الأشكال الهندسية في تحمل البرد وحرارة الشمس، هزت برأسها إن أكثر الأشكال التي استخدمها الإنسان منذ الحضرة شكل المربع في البناء، البيوت، المدارس، المستشفيات، الملاعب وأماكن العبادة... لأن هذا الشكل له قوانين بسيطة

وقوية لا يمكن أن تنهار بسهولة إلا بقوة أكبر من قوة المربع، في هذه اللحظات أمي تستخدم علم الحساب والهندسة.

بعد الحفر ودق المسامير وتثبيت النايلون على الأخشاب، والوقوف على السلم لساعة معلق بين السماء والأرض، تكتشف أنك عامل ماهر في [الطوبار] من أين جاءت هذه القوة الخفية عندي ولعائلي، كأننا ولدنا لهذه اللحظة.

تذكرت إحدى الدروس التي كنا نسمعها في الكنيسة عن الأجداد البنائين، كان يقصد أنهم بنو التعاليم وبنو التشريعات التي نعيش عليها، وأنا أضيف أن الأجداد كانوا مهرة في بناء البيوت، وورثنا منهم هذه المهارة.

بعد تعب وقلق وتركيز، صار عندنا خيمة خاصة مكعبة الشكل، من الشكل الأساسي المربع. دخلنا الخيمة، واحضرت امي بعض الحجارة ووضعت عليها قطعة من الخشب وقالت: هذا المطبخ، ضحكنا وضحنا بعضنا البعض، وبكت اختي ماريا: أنا مشتاق لأبي. وصفت أبي كأنه السكر: شيء ينقصني، هو السكر هذه الحبيبات الفضية التي أحبها في الشاي والكاكاو وأحب طعم البسكويت لأجله، أنه السكر الذي يلمع كحبات اللؤلؤ في الكلام، صديقتي التي أحبها أقول عنها سكر، الصباح الخالي من الطائرات مثل طعم السكر، يوم تضخ الماء في الخرطوم بعد انقطاع طويل وأستحم وأنا مش خائفة من قلة الماء أصير زي السكر، أحب أغنية كاظم الساهر صباحك سكر..

كانت العتمة تنزل علينا بأجنحتها الباردة، كل واحد فينا أخذ زاوية وجلس به، وهو يسرح في خياله متى ستأتي النهاية لهذه الفوضى التي نعيشها، متى تنتهي هذه الرحلة المجبرين عليها، كان لا يوجد ضوء تستأنس به، وقتها يكون النعاس هو المنتصر، فتغفو، وطوال النوم وأنت تتقلب كأن داخل أرجوحة في الهواء.

فجأة تسمع صوت صراخ بالقرب من المزرعة، تقوم مفزوعا، تتحس الأشياء من العتمة، أمي قالت لنا: لا تخافا، يبدو أن الطائرات قصفت إحدى الخيام في الشارع الخلفي، وبعد دقائق جاء رجال من الدفاع المدني بأضواء كبيرة يبحثون عن بقايا للجثث، قالت لأبي وقتها: أننا خلقنا على هذه الأرض بكامل جسدنا وعلينا أن نموت وندفن بكامل جسدنا، لكن لو فشل رجال الدفاع المدني في الحث، ستدفن الجثث ناقصة وهذا ينافي طبيعة الموت.

هزت امي رأسها: هذا كلام كبير يا أنطون، أنت الآن أكبر من لقب فتى الكنيسة.

اقترب الرجال من خيمتنا، وطلبوا الإذن بالبحث في الخيمة وحولها، وبعد دقائق، وجد أحدهم رأس، صرخت ماريا مرعوبة مما ترى، كان الرأس له شعر ناعم، وأذان صغيرة، وكان الرأس يبتسم، يبدو أنه رأي أشياء جميلة ولطيفة في الحياة الأخرى، اكيد أنه رأي محل كبير يبيع السكاكر والبطولة ورقائق البطاطا مجاني، ومينة ملاهي بها عشرات الأراجيح، وملابس وطعام فنادق، وفرقة موسيقية تردد الأغاني التي يحبها.

بعد كل قصف سريع وقوي ومخيف، بعد صوت الإسعافات وصوت سيارة مطافي الحريق، وبعد أن ينتهي رجال الدفاع المدني من انتشارال الجثث والمصابين، وبعد أن تسكت صراخ الأمهات وصوت الألم، أشتاق أن أنظر إلى القمر.

لكن في تلك الليلة كان غائب كعادته خلال أيام الحرب.

بدأت ما تبقى من العسافير الدوري تزقزق، فتحت عيني، وجدت امي تحمل دلاء ماء كبير، بصوت به حنان: هيا أغسل وجهك أنت وماريا، حتى نذهب للسوق، لا بد أن نشترى بطارية صغيرة وشاحن، وصابون وفراش وأعطية، كؤوس، وملاعق.

- لماذا لم نحضرها من بيتنا؟
- الخوف والسرعة تجعلك تنسى ذلك!
- أين هذا السوق، وماذا اسمه؟
- يقال إنه سوق الحرامية، يبعد كيلو متر شرقا.

انفجرت ماريا من الضحك، عندما سمعت سوق الحرامية: يا ماما كيف نشترى من الحرامية.

- في الرحلة حكايات عجيبة، لا بد أن نعيشها، بكل متناقضاتها. في هذه الرحلة سنعيش لحظات ستذوق طعم السكر ملح.
- علينا يا ماما أن نوثق كل لحظة وتفصيل هذه الرحلة.
- اللحظات التي نعيشها بصعوبة وتعب وبكاء، لا نوثق، من الخطأ أن نعلم الأجيال القادمة، التعب والخوف، علينا أن نعلمهم السعادة والعلم والتطوير.
- من الأمانة التي تعلمناها من الكنيسة، في وقت العراك بين شخصين، يقفان أمام أبونا علينا نقل كل الأحداث بكل تفاصيلها.
- لا أعلم ما أقول لك يا أنطون أنت وأختك ماريا، لكن عندي شعور أن هذه الرحلة كبيرة، وقد لا يبقى أبونا ولا جدارن الكنيسة، أشعر اننا سوف نركب زرقاة البحر، لمكان بعيد جدا، جدا.

وضعت أمي على رأسها منديل كبير، وأنا وماريا وضعنا قبعات، وبعد المشي لمدة نصف ساعة من السؤال، وصلنا إلى سوق الحرامية.

سوق في شارع طيني طويل جدا، يوجد به مئات من [البسطات] دكان بدون جدارن ولا باب، يفتح السوق أبوابه من طلوع النهار حتى غيابه.

كل ما تريد موجود، لكن أغلبه أشياء ليس لها مصدر، تجد [بسكويت المساعدات، معلبات، سكر، ملح، بطاريات، أحذية قديمة، وملابس (مجلوبة من البيوت التي قصفت أو نزح منها أهلها)، ألعاب أطفال مكسورة، بائع فلافل، مكسرات [الفسق، الحمص]، أدوات سبابة، بعض

أدوات المطابخ، أكوام من الخشب المهشم [يستخدم للأفران الطينة] بقايا خزانات، بقايا من الكتب، بائعة التبغ منتشرين في كل مكان، أطفال يحملون أكياس من الماء المثلج للبيع، كان يوجد رجل بوجه نحيف يضع أدوات مجلوبة من إحدى الكنائس، أجراس نحاسية، شمعدان، شموع طويلة، أشجار من البلاستيك خضراء، قبعات، صحنون فخار صغيرة جدا، بعض كتب لها أغلفة بنية مخملة، بقايا كرسي أحمر، ورجل وحيد يبيع بطاريات وشواحن، يوجد سكر، ودقيق، وزيت طبيخ وملح لكن بأسعار عالية جدا)

بعد ساعات ونحن نتجول بين الباعة، اشترت أمي أشياء كثيرة، سوف تكفيننا لأكثر من شهر، وقبل أن نترك السوق، ذهبنا للرجل الذي يضع أشياء الكنيسة.

- سألتته أمي: من أحضرت هذه الأشياء؟
- لماذا تسألين، عليك فقط السؤال عن السعر؟
- لأنني رأيت هذه الأشياء من قبل في إحدى كنائسنا!
- بصراحة، أنا أسكن بالقرب من الكنيسة، ونزلت قنبلة ودمرت الجدران، وهذه الأشياء تناثرت في الشارع، وأخذها، وأخبرت رجل يتردد على الكنيسة: إني وجدتها، أخبرني: هي عندك امانة، عندما تنتهي الحرب، عليك إعادتها، وأنا الآن لا املك ثمن طعام لأولادي، وأريد أبيعها، وأشتري طعاماً.
- هل عندك غيرها؟
- لا، لكن صديقي عنده كميات كبيرة، يمكنك أن تجهز كنسية بتلك الأشياء.

شكرت أمي الرجل، وأخذت منه عنوانه، وعدنا إلى الخيمة، لنجهز الإضاءة وبعض الطعام.

مرت الأيام علينا ونحن نعيش تفاصيل الحياة داخل قطعة قماش (الخيمة) مكان لا اسم له، لا لوحة تُعلق على مدخله ولا خارطة تعترف به، تنتشر الخيام كجروح بيضاء على جسد الأرض. هنا في مخيم النزوح، أو كما يسميه أهله: وطن مؤقت، لا يعترف به العالم، لكنه يحتضنهم كأيمٍ مكلمة تشد أبناءها إلى صدرها خوفاً من العدم.

الخيام متشابهة حتى الحزن، منسوجة من القماش والخوف، ومربوطة بحبال تثبتها الريح حيناً، وتنتزعها حيناً آخر. لا نوافذ فيها، فقط ثقوب في الذاكرة، ولا أبواب تُغلق، فكل شيء مفتوح على الخوف، وعلى صرخة تأتي من جهة الغياب.

الناس في المخيم يشبهون بعضهم بعضاً، لا لأنهم فقدوا هويتهم، بل لأن الحزن جمع ملامحهم في مرآة واحدة. الوجوه شاحبة، لكن العيون لامعة، كأنها تشتت الحياة رغم كل شيء. النساء تمشطن شعور بناتهن بأنامل من لهب، والرجال يحملون على أكتافهم خياماً من التعب، والأطفال يركضون حفاة فوق التراب، كأنهم لا يعرفون أن اللعب ممنوع على أرض الألم.

الطعام هنا لا يحتاج إلى وصفة، فهو واحد لكل البيوت: عدس، أرز، خبز ناشف، علبه تونة تُقسم على عشرة، وزيت الزيتون يُوزع كما تُوزع البركات. حتى الرغبة في التنوع صارت ترقًا لا يُفكر به أحد. الموائد متشابهة، كما الأكفّ، كما الأمل.

ومع ذلك، تحدث الأعراس. نعم، في قلب هذا الخراب، تنبت الورود. في أحد الزوايا، خيمةٌ تشتعل بالأغاني، تزينها قماشات ملونة سُرقت من بقايا الحياة. العريس يلبس قميصًا مكويًا بحب، والعروس تضع الكحل من رماد الفرن. النساء يزغردن، لا لأن النصر قريب، بل لأن الحياة لا تموت إلا إن سمحنا لها.

يرقص الناس داخل خيمة تتسع للحلم، يُصقّقون بقلوبهم، ويغنون للوطن، لا للعريس. الأعراس هنا تشبه الثورة: إعلان صغير أن القهر لا ينتصر دائمًا، وأن الحياة تُصير على أن تبقى حتى في قلب القماش.

في المخيم، لا خصوصية، لا أسرار، كل شيء مشترك: الهواء، الهم، الأنين، وحتى القصص. لكنك إن أصغيت جيدًا، ستسمع خلف القماش همسًا لا يُشبه غيره، حلمًا صغيرًا لكل خيمة، وخريطة معلقة على جدار من وهم، وعينًا تراقب الغيم علّه يحمل معها مفتاح العودة.

الحياة هنا ليست حياة عادية. إنها حياة تُكتب بالحطب، وتُغنى بوجع، وتُنسج من فتافيت الأمل. إنها حياة داخل قطعة قماش، لكنها أكبر من حدود القماش، أوسع من المكان، وأصدق من كل الخرائط.

في مخيمات النزوح، تعيد الحياة ترتيب نفسها على مقاسات الألم. لا شيء يشبه ما كان، ولا شيء يبقى كما هو. كلّ تفصيل بسيط تحوّل إلى طقس يوميّ، وكلّ عادة جديدة وُلدت من رحم الضرورة، صارت قانونًا للسمود.

صالونات الحلاقة لم تعد غرفًا مضاءة بالمرايا، بل كراسٍ معدنية صدئة على قارعة الغبار، تحت ظل شجرة يتيمة أو قطعة قماش مشدودة إلى وتد. المقص في يد الحلاق يشبه مشرطًا، لا يُعنى كثيرًا بالأناقة بقدر ما يزيل أثقال الرأس، والخيوط البيضاء التي نسجها التعب.

أما أحبال الغسيل، فقد صارت خرائط متقاطعة بين الخيام، معلقة عليها قمصان الأطفال كأعلام مهزومة، وسراويل الكبار كأنها تنتظر أن تستعيد خطوتها. بين هذه الأقمشة، يمرّ الهواء مشبعًا برائحة الصابون الرديء ورطوبة الانتظار.

الحمامات صندوق صغير من الخشب أو الصفيح، تقف خارج الزمن والخصوصية. لا مرآة فيها، لا دفة، لا باب يُغلق بإحكام. هي ضرورة تشبه الاعتراف، يمارس فيها الإنسان أبسط حقوقه كمن يرتكب ذنبًا.

ورغم ذلك، لم يفقد الناس أناقتهم الداخلية. ما زالوا يسرّحون شعر أطفالهم، وينشرون الغسيل بنظام، ويغسلون وجوههم عند الفجر، كأنهم يستعدّون لعيد. في قلب الفوضى، خلقوا نظامًا آخر، جماليًا بطريقته، عارمًا بإصراره على الحياة.

تلك ليست مجرد تفاصيل، بل شواهد على قدرة الإنسان على التكيف، على تحويل أفسى الظروف إلى أعراف جديدة. عادات الحرب في المخيمات ليست بدائل، بل ابتكارات تليق بمن قرر أن يعيش، ولو على حدّ الرماد.

ماريا كانت تخطّ ثوبًا ممزقًا.

خميس المجنون وقف أمامها وسأل:

"الخيمة بتدفيكم؟"

قالت: "أكثر من لا شيء."

ضحك، وقال:

"الخيمة مش بيت... هي قصيدة ناقصة."

ثم دخل خيمته الخالية، وخرج منها ومعه مظلة مكسورة، رفعها في وجه الشمس، وقال:

"الظلّ وطن مؤقت أيضًا."

في الحرب، حين تنطفئ المدن داخلنا، وتغيب شواهد الحداثة، ينهض التراث من رماده كطائر فينيق. في مخيمات النزوح، حين تقفز الحياة من فوق الحطب، وتختبئ الأربعة خلف الطوابير، عدنا نحن — لاجئي القرن — إلى فرن الطينة، إلى ذلك الموقد الترابي الذي بنته الجدات ذات زمن، والذي طالما رقد في الذاكرة كما ترقد الأسطورة.

عدنا إليه لا رغبة في الحنين فقط، بل لأن الحياة أجبرتتنا أن نحفر بأيدينا ما يشبه البقاء. بين الخيام، على ركنٍ من الأرض الممزقة، جمعت النساء الطين والتبن والماء، وعجنّ الصبر قبل أن يعجنّ التراب. أصابعهن لم ترتجف، بل عملت بثبات من يعرف أن النار ستشتعل ليس فقط لتطهو، بل لتحفظ الكرامة.

صنعنا فرن الطينة كما تصنع القصائد، طبقة فوق طبقة، وانتظرنا أن يجف كما ينتظر العاشق رسالة. ثم جاءت النساء، بوشاحاتهن المطرزة برماد الغياب، يحملن عجين الخبز كما تُحمل المواليد، وبدأن في مده بأصابعهن المرهقة، يرسمن دوائر من الطحين والحب، ويغنين كما كانت الجدات يفعلن حين كان الوطن أقرب من وجع اليوم.

حين اشتعلت النار في قلب الفرن، شعرنا أن في داخلنا شيء قد اشتعل أيضًا. ليس الجوع، بل الذاكرة. كانت كل رغيف يُخرج من الفرن بمثابة نشيد، وكل لهب يصعد في السماء يذكّرنا أننا ما زلنا نحيا، رغم أنف الحرب، وأنف الجوع.

رائحة الخبز المدهون بالزيت والزعر تسلفت بين الخيام، فصارت كأنها صلاة. الأطفال جاؤوا حفاة، يمدّون أيديهم كمن يطلب بركة، والرجال جلسوا في دوائر صغيرة، يقتسمون الرغيف كما يقتسمون الحلم. لم يكن الخبز وفيرًا، لكنه كان كافيًا، لأن فيه نكهة الأرض، وحكمة الأمهات، وملح الدمع الذي اختلط بالعجين.

النساء لم يكن مجرد خبازات، كنّ شاعرات. كل واحدة منهن تهمس للعجين قصة نجاة، أو أمنية صغيرة، أو دعاء صامت أن يكبر أولادها وهم يعرفون أن فرن الطينة ليس فقط للخبز، بل هو ذاكرة حية تقول: هنا كنا، وهنا ما زلنا.

في لحظة من لحظات الخبز، كان المخيم يبدو كقرية فلسطينية قديمة، بلا جدران، بلا حدود، فقط نار مشتعلة، ودخان يصعد، وأغنيات حزينة تذوب في العجين. وفي كل ذلك، كان الخبز يُولد من جديد، لا من طحين وماء، بل من وجعٍ قديم، وإصرارٍ لا يشيخ.

فرن الطينة لم يكن مجرد طين ونار، كان خريطة العودة، كان دفء الوطن حين صار الوطن خيمة.

كان الدخان يتصاعد من الفرن كأن الخبز يصرخ.

خميس المجنون اقترب، غمّس إصبعه في الرماد، ورسم دائرة على الأرض.

قال للنساء:

"الخبز اللي يطلع من نار الظلم... لازم يأكل ببطء، عشان ما نحترق إحنا كمان."

ثم أخذ كسرة ساخنة، قبلها، ووضعها في جيب معطفه الممزق، واختفى.

(#)

في مرات كثيرة يتذكر أنطوان أصدقاؤه: كأنهم نبوءة مدينة الإنسان، في الأزقة العتيقة التي تغنيها الحجارة أكثر مما يرويها التاريخ، كان أنطوان، الفتى المسيحي، يركض بخفة في طرقات حارته الصغيرة في غزة، حافي القدمين إلا من ابتسامته تضيء وجهه. كان يركض إلى حيث ينتظره أصدقاؤه: أحمد، ويزن، وسند، وعمر، ورفيف. لم يكن في عيونهم اختلاف، لا في الملامح ولا في القلب. الدين لم يكن عازلاً بينهم، بل كان كأنه أفقان يلتقيان في زرقة واحدة. حين تشرق الشمس، يبدأ نهارهم بضحكة، لا بترتيل أو صلاة. حين يغيب الضوء، لا يودّعونه بأية أو ترنيمة، بل بحجر صغير يقذفه أحدهم على باب الآخر، يهمس له: "لا تنس أن تستيقظ باكراً، الحرب قد تشتعل لعبة جديدة بيننا."

أنطوان لم يكن يعرف الفروقات الدقيقة بين الإسلام والمسيحية، كان يعرف أن قلب أحمد يشبه قلبه، وأن يزن حين يغضب يُصلح الأمور باعتذار، كما يفعل هو. كان يعرف أن بيت سند مفتوح دائماً، وأن أم عمر تخبئ له قطعة من خبز الطابون الحار كما تفعل أمه في عيد الفصح. كان يعرف أن رفيف حين تبكي، تصمت الحارة كلها، وتصير الأديان مهراً لحمايتها.

وحين يأتي رمضان، كان أنطوان أول من يمتنع عن الطعام. لا لأنه مسلم، بل لأنه لا يريد أن يأكل وحده. كان يشرب جرعة ماء عند الفجر، كما يفعل أصدقاؤه، ويبتسم كأن الصيام ميثاق صداقة لا يكسر. وفي المساء، كانت أمه تعدّ طبق الحمص والبطاطا وتضيفه إلى مائدة أحمد. كانوا يجتمعون جميعاً على أرض الحارة، يمدّون أيديهم كأنهم في صلاة مشتركة، ويأكلون دون أن يسأل أحدهم عن خلفية الآخر. شهر رمضان كان بالنسبة لهم فصلاً من الأخوة، أكثر منه طقساً دينياً.

وفي عيد الميلاد، كانت حارثهم تُضاء بشجرة صغيرة، تزيّنها يد أحمد وتلمعها نظرات رفيف. كان الأطفال يوزّعون البسكويت المحشو بالتمر والجوز، ويغنون "ليلة العيد"، لا فرق إن كانت للمسيح أو لمحمد، ما دامت الليلة تحتضنهم جميعاً. الأمهات يلبسن الأبيض، والآباء يضحكون في الزوايا، يروون قصصاً عن السلام الممكن، ويشكرون الأطفال على هذا الدرس العابر للكتب.

الذين يمرّون من بعيد، كانوا يظنون أنطوان مسلمًا، أو أحمد مسيحيًا، لا لأنهم لا يعرفون، بل لأن تلك التفاصيل لم تكن تُذكر أبدًا. الدين هناك لم يكن شارة على الصدر، بل نعمة في القلب، تُعزف فقط حين يحتاج الآخر إلى أن يسمعها. كانت العلاقة بينهم تماهٍ صادق، كأن الروح تذوب في روح، بلا حواجز أو شروط.

في إحدى ليالي القصف، في الحروب التي وقعت على غزة: اجتمع الأطفال في قبو في أحد منازل الحي. الأرض تهتز فوق رؤوسهم، والغبار ينزل كستار النهاية على مسرح الحياة. أنطوان احتضن أحمد، وقال له: "هل تخاف؟" فردّ أحمد: "لا، ما دمت معي." فردّ عليه أنطوان: "وأنا لا أخاف، لأن صلاتك تحميني." ضحك الأطفال وسط الظلام، كأن الله جلس بينهم وقال: "انظروا، هكذا أردتكم أن تكونوا."

لم تكن علاقتهم مجرد صداقة، كانت نوعًا جديدًا من الانتماء. انتماء لا يُبنى على العقيدة، بل على الحب. الحب الذي لا يسأل عن خلفيتك، بل عن وجهتك. وجهتهم كانت واحدة: أن تبقى غزة حيّة، لا بدماء الشهداء فقط، بل بضحكة الأطفال، بتسامحهم الفطري، بقصصهم الصغيرة التي تصنع وطنًا أوسع من كل الخرائط.

في المدارس، لم يكن المعلمون يعرفون كيف يفرّقون بينهم. أنطوان كان الأول في حفظ سورة "الضحى"، وأحمد كان يجيد ترتيل "السلام عليك يا مريم" بصوت رخيم. كانوا يتبادلون الأدعية، كأن السماء واحدة مهما اختلفت الكلمات. وكانوا يخططون لمستقبلهم معًا: أن يصير أحدهم طبيبًا، والثاني فنانًا، والثالث بائع كتب، والرابع مزارع ورود، والخامسة قائدة أوركسترا. قال لهم أنطوان ذات يوم: "حين تكبر غزة، ستكبر بنا، نحن النبتة التي لا تعرف غير الشمس."

المدينة التي أنهكتها الحروب، عرفت فيهم نبوءتها. كانوا يسيرون كفرقة صغيرة من الضوء، يحملون السلام في حقائبهم المدرسية، وينثرونه في كل مكان. لم يكن أحدهم يعلم أنه بصحبته يرسم سيناريو مختلفًا لغزة، لا يكتبه ساسة ولا يُملى من عواصم بعيدة، بل يولد من رحم العلاقة الإنسانية النقية، التي لا تخضع لأي حسابات.

حين زارهم وفد أجنبي ذات يوم وسألهم: "كيف تعيشون معًا رغم اختلاف الديانات؟" أجابه أنطوان بعفوية: "أي اختلاف؟ لم نلاحظ شيئًا." وضحك أحمد وأضاف: "ربما أنتم من يجب أن تتعلموا كيف نعيش."

وهكذا، أصبحوا رمزًا حيًا لفكرة أكبر من الدين: الإنسان. صاروا يشبهون ملامح المستقبل الذي نلحم به، حيث لا يحتاج أحد لتبرير وجوده، ولا يُسأل أحد عن اسمه الأول كي يُحب. مستقبلٌ تقف فيه غزة وتقول للعالم: "أنا مدينة الإنسان، وفي قلبي أنطوان وأحمد وسند ورفيف، لا يسألون عن طقوسك، بل عن يدك إن كانت ممدودة للحياة."

في تلك الحارة، هناك درس لا يُكتب في المناهج، لكنه يُكتب على جدران القلوب. أن تكون صديقًا قبل أن تكون تابعًا، أن تصوم حبًا، وتحتفل امتنانًا، أن تعيش على الهامش الجميل للأديان، حيث لا تتصادم، بل تتعانق.

وأنطوان، الذي يشبه الملائكة، ما زال يركض في الطرقات، يرفع علمًا أبيض مرسومًا عليه قلب، لا صليب ولا هلال، فقط قلب، كأنه يقول: "هنا تبدأ الحكاية، حكاية الإنسان في غزة."

رافقتني أختي ماريا، بالصعود إلى تلة العشاق (هذه التلة لا تتجاوز ارتفاعها عشرة امتار تطل على البحر، وقد سميت بهذا الاسم لأنها كانت أول مكان يذهب له الخُطاب والازواج الجدد، يكون معهم بعض الأزهار بلونين الأحمر والأبيض، والعطور والساكر وقليل من حبات الأرز والقمح وراية [قطعة قماش بيضاء مكتوب عليها أسمائهم، وقتها يرشون العطر على الورد ويلقونه اتجاه البحر، فتطفو الأزهار، إن كان اللون الأحمر يقول الزوجين حياتنا كلها حب في حب، أما اللون الأبيض يقول الزوجين: الحياة صعبة لكن سنبقى معا نقاتلها، ومن ثم يحملان الأرز والقمح والساكر إلى لسان بحري حديث يمتد بالبحر حوالي كيلو مترا، تنقطع أنفاس خوفاً عندما تمشي عليها لأنه غير آمن من الحفر الموجودة فيه من فعل ماء البحر، والقصف من الطائرات في الحروب السابقة، فيرمي الساكر والأرز والقمح إلى السمك، مع الأمنيات، أصبحت التلة واللسان البحري معلما سياحي في قطاع غزة، ومعظم المتزوجين جاؤوا للمكان مع أحلامهم)

قد سبقنا الكثير من النازحين بالصعود إلى التلة، ودمروا ملامحها ولم يبق أي راية ولا زهرة وإلا عيثوا فيها، كانت ماريا تمسك بيدي جيداً خوفاً من السقوط، لكن كان مجموعة من الأطفال عارين الصدر يقفزون بكل جراءة عن التلة على رمال البحر دون خوف، شدي أنا ماريا منظرًا سفينة كبيرة لم نراها في حياتنا في البحر، قال أحد الواقفين وهو يشير ناحيتها: هذه سفينة السلاح الإسرائيلي، نزل الرعب في قلبي، اتجه ناحيتنا: لا تخافا نحن في منطقة آمنة على حسب قول الجيش الإسرائيلي، طلبت وقتها ماريا أن نمشي باتجاه اللسان البحري، مع قليل من القوة وافقت، كان اللسان البحري عليه مئات الأطفال والرجال والنساء، كل مجموعة تجلس على صخرة تلاطمها الأمواج يفتحون هواتفهم على إذاعات الراديو على الأخبار العاجلة.

سرح أنطون في خياله وصوت يردد في رأسه: أنت ولدت على مقربة من أجراس كنيسة القديس برفيرْيوس، وكان صوتك أول ما تعلم التمييز بين الأصوات. كنت تعرف أن صباح الأحد ليس كغيره، أن الهواء في الحي القديم يصير طرياً حين يتسلل بين بلاط الكنيسة ويغسل الأرواح. وكنت يا أنطون، بقامتك القصيرة، تحمل شمعة أطول منك، وتمشي وراء والدك في قداس الفجر، تتهجى ترانيم السلام، وتشعر أن الله يمرّ من بين المقاعد الخشبية ويمسح على رأسك. لكن كل هذا صار الآن بعيداً.

فحين دكّت الطائرات قلب المدينة، واهتزت الجدران على رؤوس النائمين، لم تجد نفسك إلا في خيمة. خيمة مهترئة على أطراف مخيم نازحين في الجنوب، الريح تعبرها من كل الجهات، والمطر حين ينهمر يصير ضيقاً ثقيلاً لا يُطرد. لم يعد هناك جرس يقرع، ولا شجرة عيد نُضاء، ولا شمعة تحفظ له ظلّ الله في العتمة. صار كل شيء يشبه التراب، والبرد، والرغيف المُقسم على عشرة.

أنت تائه، لا لأنك ضلّت الطريق، بل لأن الطريق التي تعرفها سقطت تحت الركاب. فجأة صحي من السرح: يسأل ماريا: "هل الله جاء معنا إلى المخيم؟"، فتبتسم بحزن وتقول: "الله لا يترك من يحبّه، وهو يحبّك كثيرًا." كما قالت لنا ماما، لكنه لا يتركنا. فإله، كما كان، يسكن الكنيسة، يجلس بيننا، يختبئ في نور القناديل، في ثياب الأب حنا، في رائحة البخور. فكيف يمكن له الآن أن يكون معنا في الخيم ومخيم النزوح.

جلسنا على صخرة بعيدة نسبيا عن تلاطم الأمواج، وصرنا نعد الأمواج، ونراقب صياد بمركب صغير يصيد بشبكة ومجدافين خشبيين.

- أنطون متى نعود لبيتنا، متى ستنتهي هذه الرحلة، تعبنا من الجوع والعطش والبرد والحر الشديد والعتمة والطواير، أشتاق لمدرستي وجرسها وناظرتي صاحبة النظارات السمكية التي كانت تلاحقنا بعصاها الطويلة، ومعلم الرياضيات الذي طلب منا: أن نحفظ جدول الضرب، أنا مشتاق للشجرة مدرستنا ودرجها الطويل ومقصفها الذي كنا نشترى منه الخبز والفلافل وعليه فلفل أحمر مخروط، أشتاق للبائع على باب المدرسة وخاصة بائع غزل البنات وعندما كان يغني [شعر بنات، شعر بنات، للحلويين والحلوات]، مريولي المخطط، صديقتي الشقراء، مكتبة المدرسة، مختبر العلوم، عمي أبو صالح بواب المدرس الذي كان يفتح لنا باب المدرسة عندما نتأخر دون علم الناظرة.

لكن نحن الآن في مخيمات النزوح الكثير من الخيام الملاصقة مع بعضها البعض، لا يوجد ممرات بينها، لا تستطيع أن تضحك بصوت عالي أو تخبئ سرك عن الآخرين، لا يوجد خصوصية في الذهاب والعودة، لكن تعودنا فالآن لنا عام كامل ونحن نعيش في مخيم النزوح وفوق رأسنا الطائرات والصواريخ ككلاب الجائعة تلاحق لحمنا وأرواحنا.

- لو تأخرت الحرب لشهرين فقط لحصلت على لقب فتى الكنيسة، وحصلت على هدايا ومال واشترت كل ما في نفسي من ألعاب، لكن الرب أراد ذلك، لنكون في هذه الرحلة مرغمين عليها، لكن تعلمنا منها الكثير.

- تعبنا كثيراً، وتشقق جلد كفوفنا من نقل الماء والبحث عن الكرتون وأغصان الشجرة والأخشاب، وامي احمرت عينيها من إشعال النار، وقد أفقد سمعي من كثرة صوت القنابل التي نسمعها في كل دقيقة، صرت أكره أعمدة الدخان التي تصعد من البيوت البعيدة التي يحرقها الجنود في المدينة.

- يا ليت أبي معنا، لكننا في حال أفضل، أنا مشتاق له كثيراً، بعد قطع الاتصالات، هذه جريمة كبيرة، لا تقدر أن تطمئن على أحد تحبه، كل ما أتمناه أن الجنود لا يحضرون إلا هنا.

وقفت ماريا وصارت تلقي على البحر ما كتبت لأبيها (ميشيل) من رسائل وكان أنعام قيثارتها تدور حولها كطائر النورس الأبيض، كان الصمت واسع، وحتى من كان على التلة وبقرب البحر كان يسمع ما تقول ماريا:

من خلف ستائر الغيم

يا أبي،

تفتح خيمتنا على سماءٍ لا تعرف الشمس كثيرًا، لكنها تعرف الحزن جيدًا.
كل صباح، أرتدي ثوبي القديم وأمسك غيتاري بخفةٍ كأنها ملح الأرض الناعمة بين أصابعي.
أعزف وأغني، وأنتظر أن تصل نغماتي عبر الريح إليك في المشفى.
الريح هنا تحمل رائحة البحر والبارود معًا، وأنا أغني لك حتى لا ينسى قلبي كيف يفرح.

رائحة المطر والحنين

أبي،

يوم أمس هطلت الأمطار على الخيمة، وكل قطرة تروي قصة عن الأرض التي تركناها.
وقفت قرب النافذة المكسورة وأعزفت على الغيتار أغنية المطر،
كانت أمي تبكي في زاوية الخيمة، وأنا كنت أغني بصوتٍ منخفض كي لا يسمعا أخي أنطون.
أغني لك عن فلسطين التي تركناها وعن الحلم الذي لم يمت.

درب الغربية الطويل

يا أبي،

المخيم يزدحم بأصوات الأطفال، صراخهم وألعابهم وصراعاتهم.
لكن قلبي يشبه الغيتار المكسور، أوتاره مشدودة على ألم الغياب.
كل يوم أعزف أغاني الحنين، وأتخيل صوتك ينضم إلي، يضمّ جروحنا بصوتك الهادئ.
أنت هناك، وأنا هنا، ونحن على بعد مسافة تسكنها الدموع.

أغنية القمر المخفي

أبي،

الليل هنا طويل كظلك الذي طال على الأرض.
أمسكت الغيتار وجلست تحت القمر المخفي خلف سحب الحرب.
عزفت لك أغنية تُداعب نجوم السماء، أغنية تشبه ضحكة أنطون في الكنيسة.
أغني كي يهدأ القلب، كي تشعر أننا نحبك، ومنتظر عودتك كما تنتظر الأرض أول قطرة مطر.

عطر الخبز والحناء

يا أبي،

رائحة الخبز الطازج في السوق القديم غريبة هنا.

خيمتنا لا تشبه البيت القديم، لكن أمي تغزل الحب في كل زاوية، في الطحين، في الحناء التي تضعها على يديّ.

أعزف أغنية حناء الأمل، أغنية أنثى لا تستسلم رغم الألم.

تعال يا أبي، كي تشبع عينيك من الحياة التي لا تتوقف هنا، رغم البعد.

صدى أصوات الرحيل

أبي،

في المخيم هناك أصوات رحيل لا تنتهي، سيارات تسحبها العجلات نحو المجهول، ودموع تسقط من العيون كأنه المطر.

أعزف لك أغنية الوداع، أغنية الطفل الذي لم يفهم لماذا تركنا البيت ولماذا تبقى أنت بعيداً.

كل نغمة أرسلها إليك تحمل قصتي وقصة كل طفل يحلم بأن يعود إلى حضنك.

بين نغمات الغيتار وصرخة الريح

يا أبي،

الريح هنا قوية، تصرخ بين الخيام كأنها تبحث عنك.

جلستُ أمس على حصير صغير، وغنيتُ لك أغنية الريح،

صوتي تمايل مع أصابع الغيتار وكأنهما يرويان قصة انتظار.

أنت بعيد، لكن طيفك يرافقني في كل لحظة، في كل نغمة.

سكون الليل ودفء الذكرى

أبي،

حين يسكن الليل، وأغلق عينيّ، أرى وجهك مبتسماً كأنه يخرج من الظلام.

أمسكت الغيتار، وبدأت أعزف أغنية السكون، أغنية الذكرى التي لا تموت.

أسمع صوت أمي يصلي خلفي، وصوت أنطون يطلب مني أن أغني أكثر كي لا يخاف.

أغني لك، يا أبي، كي تعود إلينا، كي تزيل غيوم الغربة.

حلم العودة

يا أبي،

في كل صباح أكتب اسمك على جدار الخيمة بأصابع ملطخة بالتراب.
أعزف أغنية الحلم، أغنية العودة التي تنبت مثل الزهر في قلبي.
أنت بطل قصتنا، الطبيب الذي لم يتخلَّ عن وطنه، وأنا الصغيرة التي تنتظر قصة النهاية السعيدة.
عد إلينا، كي نعيد بناء بيوتنا، كنائسنا، وحكاياتنا.

أغنية الوداع المؤجل

أبي،

الوداع هنا مؤجل، لأننا نعرف أن الحب لا يموت.
في كل ليلة أعزف أغنية الوداع، لكنها ليست حزينة، إنها وعد باللقاء.
أغمض عيني وأراك تمشي نحونا، تفتح ذراعيك، وتضمُّ أنطون وماريا، ونحن نغني لك:
"أهلاً بك يا ظلنا الطويل، يا نورنا في زمن الغياب."

عندما كانت تكتب كأنها تقلد الرواية المشهور [أبي صاحب الظل الطول] تذكرتها، تلك الفتاة التي صارت أيقونة في الرسائل التي ترسلها لأبيها، وماريا أتوقع أن تكون شيء جميل وراقي بعد أن تنهي هذه الحرب، لأن هذه الرحلة الصعب والهروب من الموت جعلها أكثر خبرة في إسقاط الصور والأصوات والأحداث والشخصيات والمواقف وكانت تكتب وتعزف على الكيثار ما تسمعه، كان بعض الأطفال والنساء والرجال في مخيمات النزوح تلتف حولها وتسمع العزف والقصائد، وكانت بعض الفتيات والأولاد يحبون الشعر ويلقونه بصوت جميل تشعر كأنك تشاهد أمسية لمحمود درويش.

كتبت عشرة أغاني، كأنها ضعف القارات الخمسة، أكبر من ألوان قوس قزح السبعة، أسرع من فصول السنة الأربعة، أقل من شهور السنة الاثنا عشر، تساوي عشرة أصابع، يمكن أن يغنيها أخيك الصغير وهو يأكل صحن المعكرونة، يمكن أن نعلق أغانينا زينة في الخيمة، يمكن أن نلحنها بطرق العصاه على الطنجرة، بأي صوت يمكن أن نصنع لها سلم موسيقى.

عشرة أغاني تشبه أصدقائي في المدرسة، تشبه العشرة شواكل في حصاتي الصفراء، تشبه عدد الحصص المدرسية التي رسمت فيها وجه جدك وهو يضحك.

عشر أغاني كأنها عدد أعمامي وعماتي، عشرة أغاني كأصابع جدتي بعد الحناء البرتقالية.
عندما تغنيها كأنك شربت ماء مثلج في يوم حار، عندما تغنيها تترك أثر على شفاهك كأنك تأكل شوكلاتة فاخرة.

(#)

ونحن سارحين في البحر وأمواجه والقارب الصغيرة التي يقودها فتى صغير، سمعنا صوت ضحك وموسيقى وأطفال يضحكون بصوت عالي، كان وقتها الأطفال يلتفون على شكل دائر على شبابين يلبسان أقنعة مضحكة، يحملان عشرات البالونات ويركضون والأطفال تركض خلفهم، ويوزعان البالونات على الأطفال ويرقصان بشكل مضحك، رغم أننا كنا بعيدين عنهم لكن أنا وماريا ضحكنا على حركاتهما ورقصهما بصوت عالي، هممنا ان نشاركهم الرقص والضحك.

لكن الطائرات عادت وملئت السماء وصار صوتها مخيف، الأطفال والنساء والرجال الذين كانوا على اللسان البحري ركضوا خوفاً، فجأة وجدنا الشابين بأقنعتهم أماننا، ومسكا يد ماريا وصرنا نركض، بعد خمس دقائق قصفت مركب في وسط البحر لكن من كانوا على السفينة قفزوا في الماء وصاروا يسبحون إلى جهة الشاطئ.

بعد الركض وقفنا بمكان آمن، كنا الشابين يلهثا من التعب، وأنا وماريا لا نقدر على التنفس، فجأة خلع الشابان الأقنعة، وقال أحدهم: أنا ضحكة، وقال الآخر: أنا غابة، من أنتم؟ قلت أنا أنطوان، وهذه أختي ماريا، أخرج غابة من جيبه بالون ونفخه كبير وأعطاه لماريا، لكن ضحكة سرقه واخفاه، وضحك بصوت جميل وفتح فمه كبيراً، صرنا كلنا نضحك.

- هل هذه أسماؤكما أو ألقاب [ضحكة وغابة] قال أنطوان
- مش مشكلة يكون الحقيقي ولا اللقب، قال ضحكة
- أنا غابة، يحب أخي كل الطيور والأسرار والأشجار داخلي، وأخي ضحكة، لأنه يقدر أن يضحك أي أحد.
- رغم أني كنت حزينة لأني بعيد عن أبي، لكن عندما رأيتهما صرت أضحك، قالت ماريا.

ضحكة وغابة: بهلوانات اللحم في زمن الخيام، في خيمة صغيرة على أطراف مخيم النازحين في جنوب غزة، حيث تتراكم الوجوه المنهكة كأوراق خريف نسيها الربيع، ينبثق كل صباح صوت يشبه الفرح، لكنه ليس فرحاً عادياً، بل تمرّداً على البؤس. هناك، يظهر "ضحكة" و"غابة" ببدلتيهما الباهتتين المرقتين، بوجهيهما الملونين، وصندوق عجائب لا يحمل سوى الأمل وألعاب الأطفال.

"ضحكة"، الشاب العشريني ذات الجسد السمين، يزيّن وجهه بخطين ورديين على خديه، ويضع أنفاً أحمرّاً صغيراً يجعل الأطفال يبتسمون قبل أن يبدأ الحديث. أما "غابة"، الفتى النحيف ذو القامة المتوسطة، فكان يتقن حركات السيرك القديمة التي علّمه إياها والده الراحل، وكان يملك قدرة خارقة على تحويل الحجارة المتناثرة إلى ديكور عرضٍ سحريّ.

لم يكونا من هواة الهرب من الواقع، بل من صانعيه الجديد. في كل صباح، كانا يسيران بين خيام النازحين، يسألان: "هل من مكان لعروضنا اليوم؟" وكان الأطفال يتجمهرون حولهما كما تلتف الفراشات حول الضوء. فالمخيم، الذي يعجّ بالبكاء والبرد والحنين، كان ينسى ألمه لساعةٍ على الأقل، حين يتحوّل إلى مسرح مؤقت فوق الرمل.

يبدأ "ضحكة" العرض بحكاية جديدة اخترعها كل مساء. تقول: "كان يا مكان في وطنٍ من خيام، ولد طفلٌ اسمه طيف، يحلم بأن يطير فوق البحر كي يرى بيته القديم من بعيد." يروي وهي يغيّر نبرات صوته، ويتقمص الشخصيات، وتضحك الأطفال حتى تدمع أعينهم.

ثم يدخل "غابة"، يدحرج كرات ملونة في الهواء، يقفز بحركات بهلوانية فوق إطارات السيارات القديمة، ينزل على الأرض فجأة ثم ينطلق كأن الريح تحمله. كان يرسم بالأمل ما لم تستطع الألوان فعله في ظلّ الحرب.

لكن عروضهما لم تكن للضحك فقط. كانت مقاومة ناعمة. كانا يرويان قصصاً عن العودة، عن البيوت التي تنتظر أصحابها، عن الكنائس التي ظلّت أجراسها صامتة بانتظار أولادها، وعن أغصان الزيتون التي لم تجفّ رغم القصف.

في إحدى الليالي، سأل طفل "ضحكة": "هل سنرجع إلى بيتنا؟"

فأجابت: "البيت لا يغيّب، هو يختبئ في قلبك، وكلما ضحكت، أرسلت إليه إشارة أنك قادم."

كانا يوزعان ألعاباً صغيرة مصنوعة من القماش، ويخبئان داخل كل لعبة رسالة: "أنت قوي"، "لا تنس أن تحلم"، "الضوء قادم".

يصنعان القبعات من الورق، ويكتبان على كل واحدة اسماً: "شاعر"، "طبيب"، "رسّام"، فيشعر الأطفال أنهم أكثر من لاجئين. كانوا يحاولون إعادة تعريفهم بأنفسهم، لا كضحايا، بل كأبطال مؤقنين في مسرح الأمل.

وفي يوم صعب، سقطت قذيفة قريبة من المخيم. ارتبك الجميع، صرخت الأمهات، وركض الأطفال. لكن "غابة" أمسك بيد "ضحكة"، وصعدا فوق صندوق العرض، وصرخا معاً:

"لا تخافوا، لقد انفجرت بالونة عملاقة!"

ضحك الصغار رغم الارتجاف، واختلط الخوف بالدهشة، والبكاء بالتصفيق.

كان ذلك اليوم هو العرض الأصدق.

كان العرض مشتعلاً ضحكاً وألواناً، وخميس المجنون في الخلف، يصفق وحده بإيقاع مختلف.

قال بصوت عالٍ:

"اللي بيمثل للفرح وسط الخراب... هو أصدق شهيد."

ثم أعطى ضحكة وردة بلا ساق، وقال له:

"ازرعها في ضحكة طفل."

وغادر يرقص على عكازه.

حين يسدل الليل ستاره، كانا يجلسان قرب النار الصغيرة، يتحدثان عن الحكايات التي رواها، يخططان لغدٍ أفضل، يضيفان تفصيلاً جديدة لعرضهما. لم يكن لديهما راتب، ولا كاميرا توثق، فقط قلبان ينبضان بما يكفي لتغذية عشرات القلوب الصغيرة التي أتعبها اللجوء.

"ضحكة وغاية" لم يكونا مجرد فنانيين، بل مداوين للجراح غير المرئية. كانا يحملان على أكتافهما مسؤولية أن يُيقيا الحلم حياً في عيون الأطفال، في وقتٍ تتكاثر فيه القبور أكثر من الأراجيح.

في وطنٍ تُغتال فيه الطفولة كل يوم، كانا يُعيدان صياغة المعنى: أن يكون الضحك فعلاً ثورياً، وأن تكون البهلوانات شكلاً من أشكال المقاومة، وأن يكون المسرح خيمة نجاة.

في لحظات صارا الأربعة أصدقاء، ضحكة وغابة وأنطوان وماريا، وقد عرض غابة عليهما أن يشاركهما في إسعاد الأطفال في مكان النزوح، لأن إسعاد الأطفال في هذه الرحلة شيء جميل ويخفف عنا الصبر والانتظار الطويل والاشتياق للآخرين.

وضع أنطوان قناع رجل العنكبوت، وماريا وضعت قناع سندريلا، حملا عشرات البالونات ومعهما ضحكة وغابة.

كان شهر أكتوبر شهر متفتحا مبتهجا مزهرا وحفر الماء تملأ الشوارع، لأن آخر سبتمبر جاء مطر عزيز، ووقت المطر أحب أنا امي واخي ماريا أن نمشي تحته مسافات، كانت تقول أمي: وقت المطر، عليك أن تمارس ما يكتب من شعور وسعادة وأنت تمشي تحته.

ومن الأوقات التي أحببتها في تلك الرحلة، عندما تقرأ ماريا الرسائل والقصائد التي كتبتها لأبي وكانت بعد أن تلقى القصيدة تعزف على القيثارة، تشعر وقتها أن قلبك يخرج من صدرك، ومن القصائد.

أما امي عندما شعرت أن الرحلة سوف تطول ولن نعود للبيت إلا بعد الاتفاق الكامل لوقف إطلاق النار ووقف هذه الحرب، لأنها عندما كانت تتحدث مع أبي حول وضع غزة وخاص الكنيسة، كان يخبرها: بأن الوضع صعب، لأن كل الكنائس دمرت بشكل كامل وجزئ، ومعظم البيوت دمرت وأصبح الوضع كارثي، وحتى لو عدنا لغزة، ستكون رحلة جديدة في البناء والتحمل، واخبرها بأن أعداد الشهداء وأعداد المصابين يزداد يوما بعد يوم، وقل الطعام والشراب والدواء والأسرة في مشفى المعمداني، كان يزيد القلق علينا ونحن في مخيمات النزوح في الجنوب وعلى أبي وزملائه الأطباء في المشافي وعلى جيراننا وأصدقائنا الذين بقوا في غزة، ليؤدوا الواجب الإنساني اتجاه السكان الذين يعترضون في كل لحظة للقصف والموت والهروب من مكان إلى مكان.

أمي اقترحت مبادرة على السيد راضي، أن تنشئ مدرسة من الخيام والخشب والأقمشة، وتجمع الأطفال وتقدم لهم الدروس التعليمية، لأن طالت الحرب والأطفال لم يتعلموا خلال عام كامل ولا حرف ولا رقم ولا معلومة.

في ذلك الصباح الرمادي، حين بدت الخيام كأنها صفحات ممزقة من كتاب الحياة، وفتت "أمي" وسط المخيم. لم تكن تحمل شيئاً سوى دفتر أصفر، وطبشوراً قديماً، وابتسامة لا تعرف الغياب. كانت أمي تكبر بحبها للبقاء على ضوء الشموع، وعلى صوت الموسيقى التي لا تزال ترنّ في زوايا الحرب.

لم تكن أمًا فقط، بل كانت معلمة، وامرأة آمنت أن الرياضيات ليست أرقامًا باردة، بل لغة يمكن أن تُستخدم في ترميم الأرواح وتثبيت الخيام وتحويل الفوضى إلى نظام.

حين بدأت تمشي بين الأطفال في الأزقة الضيقة، كانت تسألهم: "من يعرف كم ضلعًا للمثلث؟" فتتناثر الضحكات، وتتحول الأرض الموحلة إلى سبورة. لم تكن تنتظر من أحد أن يفهمها من الوهلة الأولى، لكنها كانت واثقة أن في كل طفل لاجئ، هناك عبقرى صغير ينتظر من يزيل عن عينيه غبار الحرب.

سكان المخيم لم يعرفوا بدايةً من تكون، ولا لماذا تنصب دفترها بين الخيام، لكنهم سرعان ما أحبّوها كما يُحبّ الناس قوس قزح بعد العاصفة. عجوز منحها كرسياً، وامرأة خياطة خاطت لها حقيبة صغيرة تحفظ فيها أدواتها، وشاب عاطل حمل لها الطباشير من سوق المدينة. لم تكن وحدها. كانوا يرون فيها ضوءاً لا ينطفئ، وحناناً لا يسأل عن الدين أو المذهب، فقط يسأل: "هل تفهم معنى الجمع؟"

قالت ذات مرة: "الرياضيات لا تتكلم العربية ولا العبرية ولا السريانية، إنها تتكلم الحياة". كانت ترى في المعادلات توازناً يشبه العدل، وفي الكسور مرآة للقلوب المكسورة، وفي النسب والتناسب درساً في كيف نقسم الحزن بالتساوي فلا ينهار أحدنا وحده.

مع الوقت، صارت خيمتها صفّاً دراسياً، يجلس فيه أطفال من كل الألوان، ويكتبون الأرقام على لوح من الخشب الملطخ بالدخان. وكان بعض الآباء، ممن ظنوا ذات يوم أن العلم ترفّ في وقت القصف، يجلسون خلف أطفالهم صامتين، يتعلمون للمرة الأولى كيف يُمكن للرقم أن يمنح الأمان، لا الرعب.

جاك دراك لم تكتب معادلات على جدران المخيم فقط، بل كتبت درساً في الشجاعة: أن تكون امرأة، وأمّاً، ولاجئة، ومعلمة في آنٍ واحد، وأن تعلّم أبناء الوجد أن العدّ ليس فقط لأيام، بل للأحلام أيضاً.

اتفق السيد راضي مع مجموعة من الرجال وأخضروا خيمتين، وأمّي تواصلت مع زميلاتنا في التعليم القريين من المكان، وجاء الأطفال بأعداد كثيرة ووزعتهم على مجموعات، وصارت تقدم لهم دروس في الرياضيات والإنجليزي واللغة العربية، والكل كان سعيد، والناس لم يبخلوا بالأوراق والأقلام والطباشير، وفي خلال هذا الجمال جاء ضحكة وغابة، ونصبا خيمة ملونة، وقال في هذه الخيمة سوف نغني ونقدم مسرحاً ونوزع البالونات والحلوى، وأطلق أمّي على المدرسة اسم [مدرسة الرحلة] ويبدو أن الناس احبت فكرة أمّي وكل مخيم في النزوح حاول أن يقلد فكرة إنشاء المدرسة في المكان.

وجاءت سيارة كبيرة ووقفت في المكان، وأعطت كل طفل حقيبة زرقاء وبها دفاتر وأقلام، وعمت الفرحة في كل المدرسة، صارت أمي وزملائها وكل شخص يقدر أن يقدم أي خدمة للأطفال في مجال التعليم شارك بجهده متطوعاً، وقتها عرفت معنى كلمة التطوع في شيء تحبه لأنك مميز وتحب أن تشارك الناس وتساعدهم في الرقي والتطوير واستثمار الوقت.

أما الأطفال كانوا ينتظروا فقرات ضحكة وغابة بكل حب، وكانت خيمة المسرح تمتلئ كلها، وكانا يقفا في وسط الخيمة، ويقدمنا أغاني ويمثلا قصة، ويعملا حكواتي ويتشقلبان، ويصنعا حركات تجعل الجميع يضحك، وكانا يلون وجوه الأطفال بالألوان فتصير الوجوه عبارة عن فراشات وورود وأشجار وضحكة كبيرة، تعلمت وقتها في هذه الرحلة الصعب القريبة من الموت والجوع والعطش يمكنك أن تكون سعيد عندما تسعد من حولك.

الأطفال جالسون على الأرض، يكتبون على كراسات من ورق معونات.
خميس المجنون مرّ، رفع سبابته، وقال:

"اكتبوا أسمائكم بقلم من صبر، مش بحبر الدول."

ثم صرخ في الهواء:

"أنت مش لاجئ... أنت ضيف مؤقت في زمن مؤقت!"

وغاب تحت سلم المدرسة.

(#)

دخلت إحدى الخيم وكانت امي تعطي درس في الأعداد الصحيحة، فلاحظت أن التاريخ [1/أكتوبر] فحزت وتذكرت شهر 12 ديسمبر شهر ميلاد المسيح، ولولا الحرب لحصلت على لقب فتى الكنيسة، نزلت من عيوني دمعة، لمعت في وجه امي، ركضت ناحيتي وحضنتي وقالت كل شيء على ما يرام، سوف تنتهي الحرب وتحصل على ما تحب.

ذهبت ناحية البحر وكان الحزن يلفني وصور أبي ترافقني وصورة الكنيسة وصوت أبونا وكأنه يردد كلمات في العزم والثبات والحب وعدم الاستسلام مادامت الحياة باقية في قلبك، رددت في خاطري: يمكن أن تجلب الماء والخبز والقراءة والعزف والموسيقى والضحك وأن تسبح في هذا البحر، لكن كيف سأصنع كنسية في هذا المكان، لأحصل على اللقب، شعرت نفسي ثقيل ولا أقدر على الحركة، ووصلت إلى الشاطئ بصعوبة، وجلست، لكن وجه البحر الأزرق وجماله جلع أفكار تهدأ كصغار الطيور عندما تأكل من منقار أمها.

وقتها جلس الأطفال ينظرون نحو الأفق.

خميس تقدّم حتى بلّلت الموجات قدميه، ثم قال:

"هالطوشة كلّها... مش عشان البحر، بس عشان نحرم أطفالنا منه."

ثم ألقى قبعته الكرتونية في الماء، وصفر كأنه بخار، وصرخ:

"خذوني إلى يافا!"

وغاص بين الناس

وتذكرت عندما تقترب الليالي من نهاية ديسمبر، وتبدأ الأرواح تشتعل بلهفة النور، تصبح البيوت أكثر من مجرد جدران؛ تتحوّل إلى قلوب تنبض بالفرح، ومذود صغير يولد فيه السلام من جديد. في هذا الموعد السنوي، يُولد السلام كل عام في عيون أطفال العالم، في ضحكاتهم، في خطواتهم الصغيرة نحو شجرة العيد، وفي صلواتهم التي ترتفع كالعطر نحو السماء.

نحن لا نحتفل بعيد الميلاد كمناسبة عابرة، بل كمعجزة تتكرّر؛ معجزة الحُبّ والنقاء والخلّاص. يبدأ الاستعداد للميلاد قبل أيام، وربما أسابيع. يُخرج الأطفال شجرة العيد من مخابئها، يزيّنونها بكراتٍ براقة، ونجومٍ ذهبية، وشرائط حمراء تشبه قلوبهم المشتعلة حبًا. كل تفصيلة تحكي قصة: نجمة بيت لحم التي قادت المجوس، والمذود الصغير حيث وُلد الطفل الإلهي، والأجراس التي تعلن مجيء السلام.

ملا بسنا، تبدو كأنها جزء من طقس سماوي؛ الفتيات يرتدين فساتين بيضاء أو حمراء، ترفرف كأجنحة ملائكة صغيرة، والصبية يرتدون سترات داكنة ومعاطف دافئة، كأنهم فرسان النور في موكب الميلاد. بعضهم يرتدي زيّ "بابا نويل"، أو يحمل عصًا على هيئة حلوى، أو قبعة حمراء تتدلى منها كرة بيضاء، يلوّحون بها كلما سمعوا أغنية.

تمتلئ الكنائس بأناشيد المحبة. يرتفع صوت الأطفال في الجوقات الكنسية، يترنّمون بأغاني الميلاد: "ليلة الميلاد" و"ها قد جاء المخّص" و"جلجل أجراس". صوتهم الطفولي، المرتعش بالعاطفة، كأنه صلاة خفيفة تهمس بها الأرض للسماء. تتداخل الأغاني بالابتهالات: تضرّعات صادقة بلغة طفولية ظاهرة، يدعون فيها للعالم بالأمان، وللقلوب بالسلام، وللجائعين بالخبز والحب.

وفي قلب كل احتفال، هناك المائدة. العيد لا يكتمل دون الطعام. الطاولات تمتدّ كأجنحة الملائكة، وتحمل عليها أطباق من التراث: الديك الرومي المحشو، والبطاطا المهروسة، وحلوى "الكعك الميلادي" المرشوش بالسكر، وكعكة القرفة، والبسكويت الملون على هيئة نجوم وصلبان وشخصيات ميلادية. الأطفال يحبون "الهوت شوكليت" مع المارشميلو، ويضحكون حين تذوب الحلوى في أكوابهم كما يذوب الحزن في دفء المناسبة.

وقبل أن أكمل ذكرياتي بيوم الميلاد.

فجأة ظهر امامي امي وضحكة وغابة، قلت لهم: ما تفعلون هنا، فتح ضحكة فمه كبير وعمل حركة أضحكتني، اما غابة ووضع إصبعه على رأسه كأنه يفكر، التفت لأمي وسألته: يبدو أنهما يردان أن يقولوا شيء لي، قالت: بصراحة أنا أخبرتهم بحزنك وعن حلمك، وهما عندهما فكرة جميلة.

قال ضحكة: سوف نبنى كنسية كبيرة، وقتها مسكه غابة وقال: كيف نبي كنسية ونحن لا نجد سوى الخيمة نسكن بها ونأكل بها ونستحم أمام بعضنا البعض بدون ملابس، ضحكنا جميعا وتخلينا المشهد.

قلت وقتها: ما الحل، قال ضحكة: نعتبر كل شيء حولنا فكرة كان لها شكل خاص قبل الحرب، وفي الحرب صارت شكل آخر.

قال غابة: نسيت أعرفك على أفلاطون مخيمات النزوح، الفيلسوف الذي يضحك، قالت أمي يقصد: أن البيت فكرة كان قبل الحرب كجارة عن جدارن وغرفة ومطبخ وكراسي وفراش وله جيران، اما في الحرب تغير شكله وصار خيمة لكن بقيت الفكرة.

قال ضحكة: عائلتي الآن تصلي في خيمة، قبل الحرب كانت تصلي في مساجد كبيرة وبها سماعات وسجاد مخملي، بقيت الفكرة.

قال غابة: لما كنا نلعب في الشوارع كورة فكرة، عملوا نادي كبير صاروا كل الناس تلعب فيه، تغير الشكل وبقيت الفكرة.

حركت رأسي: تقصدون إننا ممكن أن نعمل احتفال بعيد المسيح في أي مكان، ولا يجب أن يكون في جدارن الكنسية، في أي مكان.

الثلاثة امي وضحكة وغابة قالوا بصوت واحد: في الخيمة.

قلت لهم بصوت عالي: في الخيمة، ولتكون اول مرة نحتفل بالميلاد في خيمة، كأننا في العصور القديمة.

أشارت لنا امي معنا شهرين، إن لم تنتهي الحرب وبقينا في مخيمات النزوح، سوف نعمل الحفلة وندعو كل الأصدقاء والجيران والأطفال وعلينا أن نجهز كل الأدوات من أوراق ملونة، وقماش أحمر وقماش أزرق وطرابيش ورقية وشموع طويلة، كراسي كبير وشجرة قصير وأضواء ملونة وجرس نحاسي، وكل واحد فينا سوف يأخذ مهامها ينجزه خلال ما تبقى من الأيام.

قال ضحكة: أنا وغابة سوف نقوم بعمل مسرحية عنك يا أنطون وسوف نشارك ماريا بكتابة القصة، وأنت لا تحزن نحن معك.

قال غابة: يا أنطون لا تنسى نريد قطع من البسكويت نزوعه على الحضور. وأنت تحضر كلمات جميلة تلقوها على الحضور حتى نمحك اللقب

شعرت وقتها بسعادة كبيرة، أغمضت عيني وصرت أحلم بالحفلة الكبيرة، وبصوت الحضور والضحك والتصفيق عندما أحصل على اللقب.

عندما يشعر أنطوان بضيق بالتنفس يذهب ليجلس مع جدّات مخيم النزوح، حيث المساء ينزلق ببطء فوق الخيام، كما ينزلق الشيب على رأس مقاتلٍ قديم. كان الهواء محملاً برائحة الحطب المحترق وشيء من الصبر المغلي، ذلك الصبر الذي لا يُرى، لكنه يُحسّ في تفاصيل الوجوه المتجمدة، وفي ارتجاف الأقمشة عند مداخل الخيام، وفي ضوء العيون التي لم تعد تنتظر شيئاً.

عندما يجلس معهن، لم يكن يسعى هذه المرة خلف قصة جديدة لدفتره، بل خلف شيء غامض يشبه النور أو المعنى أو ربما الأم... شيء يدفعه للسير وحده في ممرات المخيم، دون وجهة، كمن يسمع نداء خفياً من بين أكوام النزوح.

دلّوه على خيمةٍ تُشبه صدرَ أم عجوز، تجمع حولها خمس نساء، يقلن إنهن جدّات المخيم، وإن في أحاديثهن تُختصر غزوة: موتها وحبّها، جوعها وكرامتها، خبزها ودموعها. دخل أنطوان الخيمة بخطوات لا تخلو من رهبة. كأنه يدخل كهفاً مقدّساً، أو يخطو إلى باطن حكاية لا يعرف نهايتها.

الجدّة الأولى بدوية، لها ملامح تشبه صخور النقب، وصوتها كطبول الحرب في ليلة باردة. تنتظر إلى السماء أكثر مما تنتظر إلى الناس. على جبهتها وشم، وفي قلبها قبيلة كاملة. قالت له:

"يا بني، في الصحراء لا أحد ينتظرك، لكنك إن سرت بثقة، يفسح الرمل لك الطريق. نحن البدو، نولد مع الخوف، لكننا نربيّه حتى يصير ابناً مطيعاً. حين تقصف الطائرات، نُشعل النار ونغني للغيم. لا لأننا لا نخاف، بل لأن الخوف لا يستحق كل هذا الانتباه."

كانت عيناها تلمعان تحت ضوء المصباح، مثل نجمتين في سماء صافية. وشيء في صوتها جعل أنطوان يشعر أن الرجولة ليست صراحاً، بل قدرة على الضحك في حضرة الموت.

أما الجدّة الثانية فكانت فلاحاً. وجهها يقطر زيتاً وعينها حبقاً. تحدّثت عن الأرض كما يتحدث العاشق عن حبيبته الغائبة، وقالت لأنطوان:

"في بيت لاهيا، كنت أزرع البامية تحت خيط الليمون. يوم جاء الاجتياح، أخذوا الأرض، لكنهم لم يأخذوا الطين من تحت أظفري. انظر هنا... " رفعت يدها، " هذا الخط في راحتي اسمه غصن الزيتون. إن قطعت يدي، ينبت من الجرح غصن آخر."

أنطوان، وهو يستمع، شعر أن الكلمات تنبت في العقل كما تنبت الحقول. ولأول مرة، لم يكن يكتب لتوثيق الألم، بل ليزرع شيئاً في قلبه.

الجدّة الثالثة كانت زوجة شهيد. لم تتحدث كثيراً، بل كانت تفرك سبحة طويلة بصمت، كأنها تحكي للخرز كل ما لم تستطع أن تقوله لأحد. لكن حين تحدّثت، نزل صوتها كنسمة باردة على نار الصدر:

"كان يحبّ الزهر، زوجي. كنت أضع له وردة بيضاء في جيب القميص. يوم دفنائه، خبأت الوردة في صدره، وقلت له: خذها، فإن نسيته، تذكرك هي. مات، لكنه لم يغيب. كلما سمعت طفلة تضحك، أعرف أنه ابتسم في السماء."

سكنت، ومسحت عينيها بطرف ثوبها، دون أن تبكي. أنطوان شعر حينها أن الحزن ليس دمة، بل قدرة خارقة على الاستمرار.

الجدة الرابعة كانت لاجئة من 1948. وجهها مملوء بالحكايات، صوتها مكسور كقصيدة وطنية تُقرأ بصوت خافت. رفعت قلادة من عنقها وقالت:

"هذا المفتاح. فتحنا به باب الدار في قرينتنا، وأغلقتنا به الباب حين خرجنا. أحتفظ به ليس لأنه يفتح شيئاً، بل لأنه يذكرني أن لي باباً ما زال هناك، ينتظرني."

أنطوان شعر أن قلبه يرتجف. هذه المرأة لا تحمل مفتاحاً، بل تحمل قنبلة من الحنين لا تنفجر، لكنها تحرق.

أما الجدة الخامسة، فلم تنجب أولاداً. لكن الأطفال في المخيم كلهم ينادونها "ستي". وجهها مستدير كرغيف ساخن، وضحكتها تسبق الكلام. قالت له، وهي تعجن الطحين بيديها:

"كنت أعدّ الطعام للغرباء، وأحكي الحكايات للمجهولين، حتى صار لي أولاد من كل الجهات. الأمومة ليست ولادة فقط، هي أيضاً غطاء نمده فوق من يرتجف."

ثم أخرجت من صدرها صورة طفل لا يشبهها في شيء وقالت:

"هذا أحمد، ضاع يوم القصف، وبقي في خيمتي أسبوعاً، يناديني ماما. حين وجد أهله، بكى. وأنا بكيت أكثر."

جلس أنطوان بينهن كمن ضلّ طريقه فعثر على ذاته. في تلك الليلة، لم يكن "فتى الكنيسة" الذي جاء من الحكايات، بل فتى الوطن، فتى الجدات، فتى الذاكرة. لم يكتب شيئاً بعد اللقاء. أغلق عقله، ووضع بين يديه، وظلّ ينظر إلى وجوههن.

الجدات يتحلّقن حول موقد صغير، يثرثرن عن الزمن.

خميس المجنون اقترب، جلس بينهن، قال:

"أنتنّ ذاكرة البلاد، واحذرن تنسينها في قدر المجذرة."

ضحكن، فتابع:

"كل مرة بتطبخوا، خبّوا مع العدس قصة."

ثم أخذ ملعقة خشب، دقّ بها على صحن فارغ، وقال:

"أنا شاعر جائع، أطعموني حكاية."

وغادر دون أن يأكل.

تكسّر شيء ما في داخله... ليس انكسارًا هشًا، بل انكسارًا يكشف معدن الروح. شعر أن كل ما كتبه سابقًا كان جافًا، وأن الحكاية لا تُروى إلا بدموع الجدّات، وبابتساماتهن التي تشرق رغم كل شيء.

في تلك الليلة، لم ينم. جلس في خيمته وأعاد ترتيب العالم: قرّر أن يتأمل لا ليُنقذ نفسه فقط، بل ليمنح هذه النساء الخمس ذاكرة تُنقش في جدران اللغة.

(#)

دارت الأيام واقترب الموعد، وقلب أنطون يدق وكل يوم يرى ضحكة وغابة واخته وأمه يدوران حول بعضهما البعض ويشاركونهم التعب في نقل الأشياء وتجهيز الخيمة، وكانت مهمتي تجهيز قطع البسكويت والكلمة التي سأقولها أمام الحضور، في وقت اختفى طيف أمي عن المكان لمدة ساعات، وبعد مدة جاءت ومعها عربة حصان عليها أشياء وكرسي فاخر وشموع وسجادة حمراء كبيرة، سألتها: من أين احضرت بهذه الأدوات؟ ردت: ذهبت إلى سوق الحرامية، هل تذكر الرجل الذي كان عنده أشياء وأدوات الكنيسة، ذهبت عنده واشترت منه هذه الأشياء، كان لطيف معي أخبرته أننا نريد أن نعمل حفل، فأعطاني إياها بثمان قليل. عندما سمع القصة ضحكة من أمي

قال لها: من سوق الحرامية، في الليل سوف يأتون ويسرقونها مرة أخرى، أنا خائف أن يسرقوني مع الأشياء، ووضع على رأسه قطعة قماش، فانفجر الجميع بالضحك.

كانت أختي ماريا وضحكة وغابة يتدربون على بروفات المسرحية، وقد أطلقوا عليها اسم [مسرحية الرحلة]

وأنا كنت أبحث عن كلمات تليق بهذه المناسبة، كنت أجلس على البحر كثيرا، وأتأمل المارة والباعة، والأطفال الذين يركضون خلف سيارة الماء الحلو، صوت الطائرات صوت الخوف، أعد دقات قلبي وأنا أبحث عن كلمات يفهما الأطفال قبل الكبار، وأنا اجمع الحطب وأكسره للنار، وأدور بين الشوارع أبحث عن الورق والكرتون والعيidan الصغيرة، وأنا انقل الماء من المصدر إلى خيمتي، كل يوم اتصل على أبي وأسمع صوته وصوت أنين المصابين، صوت الإسعافات، كنت أراقب الشمس وأعد كم غيمة بيضاء شكلت رسوم في السماء على شكل الغدراء وابنها الصغير، كم غيمة صارت رغيف خبز، كم غيمة صارت دبابة ونحن نركض أمامها، كم غيمة صارت خيمة لها ذراعين تحضنا وقت الخوف والعتمة.

في يوم 12-25 صار كل من يسكن في مخيم النزوح مع أطفالهم يحضر إلى الخيمة، زينها ضحكة وأمي وغابة وماريا بالقماش الأبيض والأحمر والأزرق، وكل طفل يدخل يضعوا على رأسه طربوش، والنساء حملن بعض الشموع، ووضع كرسي جميل في طرف الخيمة، صعد غابة على المسرح وسط الخيمة وقد صنعه من خشب، كان يوجد عليه شجرة نخيل قصيرة وجرس نحاسي. وقال بصوت عالي: سكوت، سكوت الجميع، وقال: اليوم سوف نقدم لكم مسرحية، عليكم السكوت وأن تسمعوا جيدا، وخرج خلف قطعة قماش كانت عبارة عن ستارة خلفية، وخرجت سيدة على المسرح تشبه السيدة العذراء، وكان معها ضحكة وغابة يضعان أجنحة من ورق أبيض يبدوان أنهما ملاكين، وكانا يتحركا كأنهما يطيران ويدوران حول السيدة، وكان حامل وبطنها كبير، اقتربت ناحية شجرة النخيل، وصارت تتوجع.

مسك أحد الملاكين يدها وقال لها: لا تخافي نحن معك، اما الملك الآخر كان يحمل كأس به مشروب ساخن من المرمية، وقال لها: اشربي هذا الشراب سوف يخفف عليك الألم وسوف تلدين بكل سهولة يا مريم.

قالت مريم: أنا تعبانة جدا، وأشعر أنني سأموت وخائفة جدا، ومسكت الشراب الساخن من الملك وشربت منه، وقتها اقترب منها الملك الآخر وقال لها: سوف أساعدك، عليك أن تقولي هيا يا صغيري أخرج من بطني بسلام، وقتها انتشر على المسرح صوت موسيقى جميلة بها زقزقة العصافير وضحكة، اقترب أحد الملاكين من مريم ووضع يده على بطنها وسحب الجنين، سمعنا صوت بكاء طفل، ما أجمل هذا البكاء، كأنه غناء يريح القلب والنفس، حمله الملك وصار يدور به بين الحضور يقول مريم أحضر طفل جميل ووجه أحمر، قال الملك الآخر قال سوف نسميه عيسى، وقال للجماهير هل توافقوا على اسم عيسى فقالوا بصوت عالي: نوافق، نوافق، نوافق.

سقطت مريم من الوجد، ركض الملاكين ناحيتها، قالت أنا جائعة: ومددت يديها على شجرة النخيل وهزتها، فسقط على رطب من الشجرة، استغرب الحضور مما يروون، أكلت مريم ووضعت صغيرها على صدرها فنام.

فصفت الجمهور بحرارة عالية، وبعدها نزلت الستارة، فخرج الممثلون من خلفها، بعد أن خلعوا ملابس التمثيل، فكانت أختي ماريا بدور مريم، وضحكة وغابة دور الملاكين، وقال ضحكة بصوت عالي، علينا أن نرحب بمخرج المسرحية، السيدة جاك إنها أمي، إنها مفاجأة كبيرة.

أشار غابة للحضور وقال لهم كل من معه شمعة فليشعلها لأن الآن سوف نحتفل مع صديقنا أنطون ليحصل على لقب فتى الكنيسة، وعليه أن يجلس على الكرسي ويضع هذا التاج المصنوع من الخشب على رأسه، ويلقي لنا كلمة بهذه المناسبة، أما ضحكة قال: كل هذه الحفلة من فكرة وعمل أنطون، رحبوا به، فصفق الحضور جميعاً، وجلس أنطون على الكرسي ووضع التاج على رأسه.

صار يسرد ما كتب عن ورقة بيضاء:

قبل أن يدخل شوك القنفذ في جلدي، كنت متعوداً أرفع يدي للسماء، لا يهمني نوع الكلمات التي أرسلها للسماء، بطعم البرتقال الغزاوي أو تشبه الشمع في الكنائس أو رقيقة كالخبز المقرمش.. أخبرُ السماء عن كل شيء أريده وخاصة أن تكون مولودتي القادمة شعرها أسود، وعيونها ملونة وصوتها عند البكاء يشبه صوت فيروز.

ولأني أجيد اللغة كنت أيضاً أطلب من السماء طعاماً للعصفور الدوري الذي ينام فوق سطح الجيران، ولا أنسى دراويش الحارة، أن يجدوا مكاناً يناموا به ويخبئوا ملابسهم المهترئة. مرةً طلب من السماء أن ترسل قدماً خشبية من الزان لجارتنا التي تبيع عند عتبة بيتها السمسامية والفستقية والتمرة، حتى تركض خلف الأطفال عندما يسرقوا منها أي قطعة.

وأن السماء تعطي عضلات مدورة قوية للرجل الذي يجزّ عربة المهلبية بالعسل من سوق المدينة إلى بيته ليلا ليصل بها قبل أن ينام صغاره وزوجته صاحبة الصوت الجهور.

وسرّ مغلي المرمية التي يشفي وجع البطن، وصوت أغنام عمي التي تشبه مقطوعة الخلود. فأنا اكتب عن البندقية الطويلة المخبئة بين ملابس العائلة في الخزانة، وعن الوسائد المرسوم عليه القبة الصفراء وأجراس كنسية المههد، وأختصر الكلمات عندما يأتي في خاطري الخنافس السوداء أن تعبر الشارع دون أن تدوسها عجلات السيارات المسرعة. فأدعوا لها أن تفلت كما يفلت الطالب من العقاب المدرسي لأنه تركت الواجب وركض خلف كرة من قماش بأرجل حافية.

كان القنفذ بعيداً عني وشكله جميل، [القنفذ هو الحرب]، فجأة تضخم القنفذ بحجم ديناصور، وركض ناحيتي ووقتها فقدت بوصلة الهروب، فدخل شوكة في جلدي.

ومنذ ذلك الوقت وأقدامي من كثر الركض وراء الخبز والماء صارت كأقدام الفيل. كنت أرتدي سترة لها جيوب لأضع فيها قطع البسكويت عندما يعطينا أحدهم (منة) وبنطال قوي واسع حتى لا يتمزق من عراك الطواير، وأحمل في حقيبتي بطاقتي الشخصية وصورة جماعية لعائلاتي وشاكوش وخيطان وأسلاك وأكياس نايلون ومقص وسكين وحبّة مسكن وبخاخة فينتولين موسع للقصبة الهوائية.

وأى قطع قماش أو خشبة أو حبل أجدها في الشارع أحملها لأكمل جسد الخيمة التي أسكن بها التي لا تكفي أن تفرد أقدامك ولا تستطيع أن تغسل وجهك ولا تحلم وطوال النهار والليل وأنت تلاحق الزواحف والحشرات والشمس والعتمة لتمنعها أن تشاركك مساحة الخيمة.

صفق الجميع لما سمعوا مني هذه الكلمات الغريبة المعكوسة الغير ناضجة بحرارة، فجأة رن هاتف أمي، وأشارت إلى الجميع بالسكوت، وقالت هذا أبونا من الكنسية سوف يتحدث معك يا أنطون، وضعت الهاتف على أذني، وقال بصوت به سعادة: لقد وصلني أن تريد اللقب الذي تحمل به، وعملت هذه الحفلة الكبيرة لأجله، وقد حصلت يا أنطون على لقب [فتى الكنسية] وقبل أن أقول شكرا، صار الحضور يصفق ويهلل، ويدورون بالشموع حولي، وقد وزع ضحكة وغابة البسكويت على الجميع.

بعد أن حصلت على لقب فتى الكنيسة، كنت أدين لصديقي ضحكة وغابة، بحث عنهم كثيرا، فلم أجدهم، وعندما أخذهم أشعر أنهما مشغولان، في أرضٍ تشظت فيها المعاني وتكسرت فيها البيوت كما تُكسّر الألعاب في أيدي الأطفال، يخرج "ضحكة" و"غاية" من بين الركاب، لا لبروبا قصة موت، بل ليخترعا حياة.

هما ليسا مجرد شابيين مسرحيين ولا بهلوانين يجيدان القفز في الهواء وإخراج الأرانب من القبعات، إنما هما معجزة صغيرة تمشي على قدمين، في قلب الكارثة. من يراها وهما يقفزان بين الخيام، يظنهما يُضحكان الصغار، لكن الحقيقة أعمق: إنهما يرمّان الروح.

في طوابير الخبز، في زوايا المدارس التي تحوّلت إلى مأوى، في صفوف المساعدات، في لحظات الانتظار الطويلة على حوافّ المدن المكسورة، هناك دائما ظلّ "ضحكة" و"غاية". لا يرى وجودهما بالعين وحدها، بل بالقلب أيضا. كأنك تشعر أنهما يقودان سيارة الإسعاف التي عبرت لتوّها أمامك، أو أنّهما من وزّع كراتين الطعام على العائلات دون أن يطلبوا شيئا بالمقابل. تراهما، أو تشعر بهما، في كل مكان، لأنّ حضورهما ليس جسداً فقط، بل فعلاً وموقفاً ورمزية.

لكن الأدهى، أن ملامحهما تُشبه ملامح الشهداء. تلك النظرات العميقة التي تحمل في أطرافها نبوءة الرحيل، وفي مركزها نارا من الحياة، ملامح شهداء لم يسقطوا بعد، لكنهم يعبرون الحياة كمن يودّعها كل يوم وهو يبتسم.

في النزوح، كل شيء قابل للذوبان، كل شيء هش، لكن "ضحكة" و"غاية" يزرعان في الهشاشة صلابة خفية. وكأن المسرح الذي يصنعه هو الفعل الأعظم للمقاومة. ليس لأنهم يُضحكون، بل لأنهم يمنعون الحزن من الاستيطان.

في تلك اللحظة التي يتحوّل فيها الوطن إلى خيمة، والحلم إلى صفيحة زيت، يصبح المسرح ضرورة. المسرح هنا ليس خشبة وديكور، بل الحياة ذاتها. نزوحنا مسرح، ونحن أبطاله. لا لأننا اخترنا الأدوار، بل لأن الحياة فرضتها علينا. و"ضحكة" و"غاية" هما أعظم الممثلين في هذا العرض المكسور.

أبطال النزوح لا يملكون النصوص ولا الكواليس، لا يملكون خاتمة ولا تصفيق جمهور. لكنهم يملكون قلوبًا ما زالت تؤمن بأن هذا العرض، مهما طالّت مدّته، سيصل في النهاية إلى مشهد العودة.

في أحد المرات، وقف "ضحكة" على ظهر شاحنة نقل مساعدات وهو ينادي بأسماء وهمية على كراتين الإغاثة:

"كراتين السعادة هنا! من يريد صندوق فرح؟ من فقد ابتسامته؟ من يريد حلمًا مغلفًا بالطحين؟"

وكان الأطفال يركضون حوله، لا ليأخذوا الطعام، بل ليحجزوا مقعدًا في المسرحية اليومية.

أما "غابة"، فكان يسير في أحد الممرات ويكتب على الجدران المتهاكلة:

"إذا سقط البيت، فالقلب لا يسقط. وإذا انطفأ التيار، فالعين تُضيء."

ثم يرسم شمسًا تبتسم على كل باب.

ذلك هو المسرح الذي يصنعه. مسرح بلا خشبة، بلا مقاعد، بلا ضوء... لكنه مسرح حقيقي لأنه يوجع، ويقاوم، ويخلق شيئًا من لا شيء.

في النزوح، كل شيء قابل للنسيان: الأسماء، العناوين، تفاصيل البيوت. لكن الفنّ وحده يُقاوم النسيان. وكل ما يفعله "ضحكة" و"غابة" هو مواجهة هذا المحو العظيم بالضحك.

هما يدركان تمامًا أن الضحك في هذا السياق ليس عبثًا. بل هو بيان الحياة، وإعلان حبّ، وصراخ في وجه الموت. إن تضحك تحت القصف، فأنت تُعلن بأنك ما زلت حرًا.

في مشهد آخر، جلس "ضحكة" على الأرض مع مجموعة من الأطفال، وبدأ يقصّ عليهم حكاية عن سمكة تعيش في بئر، وتبحث عن البحر. وكان الأطفال يضحكون من التفاصيل، لكن عيونهم كانت تعرف أن السمكة تشبههم: تبحث عن بيت.

وفي نهاية اليوم، بعد أن يخلع "غابة" أنفه الأحمر وملابس المهرّج، يقف أمام المرأة ليجد وجهه الحقيقي: وجه شاب في العشرين، لاجئ في وطنه، يحلم بأن يُدفن ذات يوم في أرضه، لا في خيمة.

أما "ضحكة"، فيخلد للنوم على فرشاة خفيفة قرب باب المدرسة، ويضع قبعته الملونة فوق صدره كما لو أنها درع. لا ليحمي قلبه من القذائف، بل ليحمي الحلم الذي يسكن قلبه من التسرب.

النزوح هو المسرح الكبير، لكننا لا نلعب فيه دور الضحية، بل دور البطل المكسور الذي ينهض كل مرة. كل من يُقدّم كأس ماء في الطابور، كل من يُخبّي رغيف خبز لجاره، كل من يبتسم وهو ينتظر اسمه في قائمة المساعدات، هو ممثل في هذا العرض الكوني.

"ضحكة" و"غاية" هما المخرجان الصامتان لهذا العرض. لا يرفعان الستار، بل يرفعان المعنويات. لا يغيّران المشهد، بل يغيّران زاوية النظر إليه. ولهذا، تبدو الحياة أقل ظلمة حين يمران.

لقد علّمنا أن البهلوان ليس من يمشي على الحبل، بل من يمشي فوق الحزن ولا يسقط. وأن المسرحي الحقيقي ليس من يحفظ النص، بل من يكتبه من نبضه كل يوم.

في آخر النهار، حين تسكن الخيام، وتُطفأ مصابيح المدارس، يجلس "غاية" و"ضحكة" تحت شجرة زيتون يتيمة، ويتحدثان عن مسرح الغد. لا أحد يراهم، لكن غداً، حين تشرق الشمس، سيعودان إلى الساحة، وسيبدأ العرض من جديد.

(#)

- أنطون هل سمعت المذيع، يبدو أن الحرب سوف تنتهي، سيكون هناك هدنة لمدة أربعين يوماً، خلالها يمكننا أن نعود لبيتنا مشياً على الأقدام، وبعد عشرة أيام من الهدنة سوف يسمح للمركبات والشاحنات بالحركة ما بين الجنوب والشمال.
- سمعت الأخبار يا ماما في الشارع، النازحين كلهم يرقصون من الفرحة والسعادة، سوف نعود، كم أنا مشتاق لبيتي.

هذه اللحظات هو اول ليلة في السلم، عندما سمعنا المذيع، وآخر الميلاد في الحرب، كلنا عشناه، كنا نرقص ونتعانق البارقة بالوعود وكنا عاديين جداً، ما من أحد استمع لكلماتهم الأخيرة، ولم يكونوا مدفين في أي مكان قلد ابتلعنا الفراغ رغم الزحمة التي حولنا.

إن الأحداث التي عشناها في هذه الرحلة لها حسابان في وجداننا، من نزوح، وامل العودة، والصفارات والقنابل، والصفوف الطويلة على الماء والخبز، طابور الوجع

ليس في الأمر بطولة. لا شيء بطولي في أن تصحو قبل الشمس لتقف في طابور الخبز. لا شيء يستحق التصفيق في أن تُدفع بجسدك المتعب بين الأكتاف، أن تُعدّ أنفاسك كما تُعدّ الأرغفة، وتُمسك أعصابك كي لا تنفلت وتضيع كما ضاعت مدن بأكملها.

في مخيمات النزوح، لا يُقاس الوقت بالساعات، بل بطول الطوابير. طابور الخبز، طابور الماء، طابور للغاز إن وُجد، وطابور للنسيان إن استطعت. يقف الناس بعيون نصف مفتوحة ونصف مغلقة، يحملون على ظهورهم خييات الأمس وأمنيات لا تتجرأ أن تكون أحلاماً. يقفون ليس لأنهم يحبون الوقوف، بل لأنهم إن لم يفعلوا، سيموتون جوعاً أو عطشاً، أو ربما من الحزن.

طابور الخبز ليس سطرًا منتظمًا من الناس، بل هو سطر من الحكايات. هناك أم ترجو أن تصل قبل أن تفتح ابنتها الصغيرة عينيها، وهناك طفل يشدّ على رغيفه كما لو أنه كنز، وهناك شيخ لا يقوى على الزحام، لكنه لا يملك خياراً آخر. الطابور ليس مجرد انتظار، إنه امتحان للكرامة، وصبر لا يُقاس بالثواني بل بالنبضات.

وقف الناس صفوفًا كأنهم أعمدة باهتة.

جلس خميس المجنون على حجر، يراقب، ثم قال بصوت مبلل بالملح:

"الجوع أحيانًا مش للخبز... الجوع الأكبر يكون للكرامة."

ثم أخرج من جيبه عظمة دجاج جافة، رفعها عاليًا وقال:
"هيا التذكرة... إما للجوع، أو للحرية."
وقبل أن يفهمه أحد، نهض ومضى.

أما طابور الماء، فهو أكثر وجعًا. كأنك تصطف على حافة البقاء. تحمل جالوتًا فارغًا، وقلبًا أثقل منه، وتنتظر، وتراقب، وتُقدّر كم سيكفي هذا الماء من غسل، كم سيبقى للشرب، وهل ستغسل به جراحك أم دموعك؟

تتداخل الأجساد، وتتصادم النفوس، وكلُّ يحاول أن يبقى إنسانًا، ألا يصرخ، ألا يدفع، ألا يتوسل، لكنه في النهاية لا يعود كما جاء.

يخرج من الطابور وقد تنازل عن جزء من حلمه، من كرامته، من صوته، فقط ليعود بخبز لا يكفي، وماء لا يكفي، لكنه يبتسم.

لماذا؟

لأنه نجا ليوم آخر.

ونجاتنا في هذا الخراب صارت أعظم الانتصارات.

الزحام لا ينتهي، والوجع لا يُختصر. من طابور إلى طابور، تتأكل الأيام، كأننا نركض بلا أرجل في ممر ضيق لا نعرف أين نهايته. لكننا، رغم كل شيء، لا نسقط. نترنح، نعم. نصرخ في سرنا، نعم. لكننا نعود غدًا إلى الطابور نفسه، بالوجع نفسه، لأن في آخره ما يكفيننا لنعيش: قليل من الخبز، قليل من الماء، وقلب لا يزال ينبض رغم كل شيء.

اجتماعاتنا مع العائلة بعد النجاة من القصف الأخير، على ضوء خافت يتلاشى بعد ساعتين من الظلمة، وعليك أن تكمل الليل بحواسك الخمسة وذاكرتك لتصل إلى الحمام الذي يبعد خمس أمتار عن الخيمة التي تنام بها. نلتف حول علبة معدنية صنعنا منها موقدًا، كنا نحرق بها الأوراق، فليسع الدخان عيوننا، وفي الخارج يكون بقع الدم، رصاص، دوي مدافع ودبابات، وفي داخلنا جميعًا في مكان النزوح، كان الصمت سيداً فينا، يوازي الأمل بالنهاية.

وفي الصباح كان يوقظنا وعينا بالسؤال نفسه: هل مازال الصليب معلق على جدارن الكنيسة أو دمرته الحرب، هل مازلت أضواء شجرة الميلاد تعمل.

إنها رحلة الهروب من الموت، رغم أن هذه الرحلة غير مؤكدة في النجاة، التي لا تشبه شيء لأنها بها إيجاب بالتجربة وممارسة طقوسك اليومية رغم أنفك.

كل أصدقائي رأيتهم مرة في الشارع ومرة في طوابير التكية ومرة يركبون في شاحنة كبيرة، والكثير منهم يسكن بالخيم مثلي لكن في مخيمات نزوح بعيدة، إلا صديقي القصير وهو ابن حارتنا، سألت عنه كثيرا، وعلمت أنه مات شهيدا. وعندما علمت ماريا بالخبر، كتبت قصيده باسمه

محي اسمه من بين أسمائنا

صار فوق رؤوسنا

أنه نجا

أنه سعيد

أنه عصفور الصباح

ربما أصبح شجرة

ربما أصبح وردة

سنجده

عند شباك الجيران

سنجده

فوق شجرة البرتقال

سنجده يملئ بحبات المطر

وغنتها على القيثار.

عندما تسير الأمور حسبما نشاء يكون من السهل أن نصبر. أما الامتحان الحقيقي للصبر فيأتي عندما ينتهك القلق والخوف ولا تعرف أين تهرب من طائرات وقنابل وهدم وقتل هذه الحرب، أو عندما نواجه الظلم؛ أو عندما تفقد بوصلتك وتصير وحشاً لنحصل على الماء أو الخبز. يعتقد البعض أن لهم الحق في أن يغضبوا في وجه المضايقات والتجارب هذا ما تعلمته بين جدارن الكنسية.

أذكر: كان أبونا (حنا) نزق وهو يعطينا الدروس أو يفسر الكتاب المقدس، كان يقول لنا لا شيء مقدس إلا أنت وعليك أن تحارب وتقاتل للبقاء، قال لنا: عدم الصبر كأنه غضب مُقدَّس. رغم أن الكتاب المقدس يمتدح الصبر كثمر الروح، الذي يجب أن يُثمر في كل مَنْ يتبعونه، الصبر يُظهر ثققتنا في توقيت الله وقدرته غير المحدودة ومحبته.

كل ما حولنا من نازحين في المخيمات دون ديننا، يعتبرون الصبر هو انتظار سلبي، أو احتمال لطيف، إلا أن أغلب الكلمات في الكتب السماوية أن الصبر يدل على كلمات إيجابية وحيوية.

إن صبرنا يكافأ في النهاية "لأنَّ مَجِيءَ الرَّبِّ قَدْ أَقْتَرَبَ" وأنا أعتبر بأن صور من صور الرب الإيجابية هي وقف هذه الحرب، الذي دخلت في كل مكان وفي كل بيت وشارع وتركت أثر في كل جسد من الدمع أو البتر أو فقدان أو الجوع أو العطش أو البرد أو حرقة الشمس.

عشنا في مخيمات النزوح عبارة عن شخصيات فقدت فطرة الدين، كنا تشبه جداً من أحد تاه في إحدى الغابات وعليه أن يقاوم كل ما حوله ويأكل كل ما يتاح له، ويلبس ما هو متوفر، كنا نعيش في تفاصيل الحرب "برد الفعل الطبيعي" لأننا الآن خليقة جديدة في الحرب ونحتاج إلى كتاب سماوي جديد.

لم يكن الصباح مختلفاً. ذات السماء، ذات الغيوم الرمادية التي تشبه الجراح المفتوحة، ذات الصمت المعلق مثل حبل فوق رقاب الخيام.

لكن شيئاً ما في الهواء تغيّر. كأن الريح نفسها، للمرة الأولى، لا تحمل صفيراً. الناس استيقظوا وكأنهم على موعد مع حلم مؤجّل.

جدة رُقِيَّة وضعت وشاحها المطرّز فوق رأسها، وجلست أمام الخيمة تنظر في العدم.

قالت: "في أخبار عن هدنة... بس ما بدى أفرح. تعبت أفرح وأرجع أدفن."

كانت ماريا تمشط شعرها بأصابعها، وتتخيل أن الشعر الطويل سيتدلّى من نافذة الكنيسة، مثل أميرة في قصة قديمة.

قالت لأنطون:

– الليلة حلمت بأبونا، كان ماسك باب الكنيسة، وينادي عليّ.

قال أنطون، وهو يربط حذاءه المهترئ:

– لو صارت الهدنة، راح نركض عنده. بس بدنا نعرف الطريق، والسماء تصير آمنة.

في الساحة الصغيرة بين الخيام، كان الأطفال يرسمون على الرمال طائرات ورقية.

أحمد، الذي لم يتكلم منذ شهرين، همس فجأة:

– أنا بدى أطيّر.

ضحكة وغاية سمعاه، فهرعا إليه كأن المعجزة وقعت.

جلسا معه، صنعوا له طائرة من ورق المعونات، وكتبوا عليها:

"إلى السماء... بلا خوف."

الكل ينتظر.

كل خيمة تحبس أنفاسها.

كل أم تجمع أولادها حولها كأنها تستعد لصلاة.

كل عين تشرّع حدقتها للغيم، تبحث عن طيفٍ وعد.

ثم...

المذياع العتيق يُفتح، ويخرج منه صوت مشروخ:

– "أعلنت الهدنة... دخلت حيز التنفيذ."

توقّف الهواء.

توقّف النبض.

توقّف الأطفال عن اللعب.

حتى أنطون توقّف عن التنفس لثانيتين، وهو ينظر لماريا بذهول.

ضحكة وغاية انفجرا بالضحك والبكاء معاً.

أخذاً يوزعان البالونات، كأن الحرب انتهت فعلاً.

ثم صعدا فوق كرتونة فارغة، وبدأ يغنيان:

"رجعوا الصغار... على الديار... وقلوبهم بتغني."

الجذّات بدان بالبكاء، وهن يقرأن الفاتحة على الأرواح التي لن تعود.

ماريا أخذت غيتارها، وغنّت بصوت مرتعش:

"يا هدنة الله... لا تكوني كاذبة

ولا تكوني كعطر العيد فوق قميصٍ مبلّلٍ بالدم

نحن لا نحتمل الكسر مرتين."

وبينما المخيم كله يردد الصمت كأنه نشيد،

وأنطون يشد يد أخته،

قالت رُقِيّة:

– الهدنة مش سلام... بس هي نُقطة ماء في صحراء الروح.

وسمّوا ذلك اليوم: يوم البكاء الصامت.

اشتعل خبر دخول الهدنة كالنار في الهشيم، كنا نعيش بمخيمات النزوح كالمجهول، والآن سوف

نعود إلى المجهول الأكبر، لكن السؤال هل نعود مرة أخرى إلى الخيمة، أم سنغلق هذا الوجود؟

صمت غريب حَيّم على المكان.

الناس يسمعون الهدنة ولا يصدقون.

خميس المجنون ظهر فجأة، ورفع يده إلى السماء، وقال:

"الهدنة؟"

جرعة مورفين صغيرة... بس الجرح كبير."

ثم مشى وسط الجمع، ورّع أحجارًا صغيرة، وقال:

"كل حجر... تذكير ببيت كان هون."

واختفى نهائيًا.

لاندري كيف صرنا نركض في الشوارع عندما سمعنا عن طريق صلاح الدين وطريق الرشيد البحر مفتوحة أمام عودة النازحين إلى بيوتهم في غزة، لم نعود إلى بيوتنا ولا إلى مدراسنا، ولا شوارعنا، الجميع وكل العائلات ركضت ناحية الكنسية، كانت وقتها الصواريخ أكلت جدرانها وسقفها ومزقت كتبها، لكن كان يصدر من داخلها صوت أجمل من الألحان، أنعم من الاحضان بعد الغياب، لم نسلم على بعضنا البعض كأن الاشتياق تبخر كقنديل البحر عندما يخرج من الماء، انطلقنا ناحية الجدران لنعيد بنائها كما تركناها قبل النزوح...

نحن الذين نعيد البناء بالحب، لم يكن صوت المعاول أقسى من صمت الجدران المهذمة. كانت الكنيسة المعمدانية ترقد بين الركاب كجسدٍ أنهكته الحروب، جسد ينتظر لمسة حنان لا صفارة إنذار. ومع أول خيط فجر، جاءوا... أنطون، الفتى الذي حمل في قلبه جدران الكنيسة، لا صورها فقط. ميشيل، الطبيب الذي تعب من إنقاذ الأجساد، فأراد أخيرًا إنقاذ الروح. ماريان، التي لم تأت بيدين فارغتين، بل جلبت قيثارتها لتغني للجدران. وأبونا حنا، الذي جثا على ركبتيه ورفع صلاته من بين الأنقاض لا من فوقها.

جاءوا ومعهم أسرٌ بأكملها، رجالٌ ونساء وأطفال، لا يحملون الخرسانة، بل الحنان. جاءوا لا ليبنوا حجارة فقط، بل ليبنوا ذاكرةً تقاوم الزوال.

في الهدم، كل شيء قابل للطمس: المكان، الاسم، الحكاية. لكن في ثقافة البناء بعد الهدم، كل شيء يستعاد بالحب. الجدار ليس جدارًا فحسب، بل شهادة ميلاد، وصدى دعاء، ودفء ضحكة قديمة. والنوافذ ليست زجاجًا، بل عيونٌ تطلّ على الغياب وتقول: "سنراك غدًا".

لم يكن الترميم فعلًا هندسيًا، بل فعلًا وجوديًا. كل يد كانت تمسك بالطين كأنها تمسك بروح أم. كل طفل كان يركض بين الأحجار كأنه يبحث عن أرجوحته. الكنيسة التي كانت مهدومة، بدأت تنتصب تدريجيًا كقصيدة نُكتَب من جديد. وكل مَنْ شارك في الترميم لم يكن يشيد جدارًا، بل يضمّد جرحًا في قلبه.

قال أنطون وهو يضع حجرًا صغيرًا:

"هذا الحجر ليس ليرفع الكنيسة، بل ليرفعني أنا. حين أبني، أعود طفلًا يحلم، لا لاجئًا ينتظر خيمة."

أما ميشيل فقال وهو يمسح جبينه:

"أنا طبيب. تعبت من رقع الأجساد. هذه المرة أريد أن أرقع السماء التي انشقت فوق رؤوسنا."

وقالت ماريان، وهي تربط وترًا من قيثارتها إلى خشبة الباب القديم:

"دعوا الموسيقى تعود. فالصوت أيضًا يبني. والصدى أيضًا شفاء."

وقال أبونا حنّا وهو يرفع صليبه المكسور:

"الرب لا يسكن الجدران، بل في نفوس الذين يُصلّحونها. كل من يحمل خشبة هنا هو رسول، وكل امرأة تنظّف الغبار عن مقعدٍ مهوم هي قديسة."

البناء بعد الهدم ليست مشروعًا عمرانيًا، بل مقاومة ناعمة، سلاحها الإصرار والذاكرة والحبّ. حين نعيد بناء ما تهدّم، لا نعيد فقط ما فُقد، بل نعيد أنفسنا كما كنّا قبل أن نسقط.

في نهاية اليوم، لم تكن الكنيسة قد اكتملت، لكن العيون اكتملت. ولم تكن الأجراس قد عادت، لكن القلوب قرعت من جديد. ووقف الجميع في منتصف ما تبقى من صحن الكنيسة، لا ليعلنوا انتصارًا، بل ليعلنوا حبًا.

قال أنطون بصوته المبحوح من التعب:

"لن نغادر. نحن لا نبني فقط كنيسة، بل نبني مكانًا نستحق أن نُدفن فيه بكرامة إن متنا، وأن نحيا فيه بعزة إن بقينا."

وساد الصمت.

ثم رفعت ماريا قيثارتها، وضربت أول وتر. فتفتّحت الزهور بين الأنقاض، كأنها هي الأخرى تُريد أن تبني شيئًا

وقف أنطون في قلب الدائرة. لم يكن فتى بعد الآن، ولم يُصبح رجلًا بعد. كان عتبةً من نور، برزحًا بين الأمل والفقد، صوتًا لا يزال يحتفظ ببحة البكاء ونبرة التمرد. تحلّقوا حوله كما تتشكّل الهالة حول شمعةٍ لم تنطفئ بعد.

أبونا حنّا، بثوبه الأبيض الموشى بحزن، مدّ يده ووضعها على كتف أنطون. قال بصوتٍ كمن يُصلّي:

"يا فتى الكنيسة، أيقونة الألم، ومزمور النجاة... أنت لست وحدك."

وقف الدكتور ميشيل، وقد غطّت لحيته البيضاء تجاعيد الحرب، وحدّق في ابنه بعينٍ أبصرت كل احتمالات الموت، ولم تختَر سوى الحياة. همس قائلاً:

"يا بني، لقد أنجبتك تحت القصف، في ليلٍ لم يُسمع فيه سوى صراخ الأمهات. لم أختَر لك اسمك عبثًا. أنت أنطون، أي النصر في وجه الذل، والجَمال في ركام المدن."

أما أمه جاك دراك، تلك المعلمة التي كانت تقرأ لهم حكايات الأرض، وتنسج من أصابعها جدائل السنديان، فقد جلست أمامه كما تجلس الأمهات في حضرة المعجزة، وناجته بصوتٍ حنون:

"أنطون... يا صوتي الذي ظلّ يصرخ حين صمتت، يا درسي الأخير في معنى أن نحب رغم الكراهية، وأن نُدرّس الحلم في مدارس الخراب."

ثم جاءت ماريًا، بضحكتها المنكسرة وقيثارتها المضرّجة بالحنين، جلست قربه، ومدّت وترًا واحدًا، كان كافيًا لينفتح باب القلب. قالت:

"أتذكّر حين قلتَ لي: العالم لا يفهم موسيقانا؟، وقلت لك: لأننا نعزفها من جراحنا لا من أصابعنا. والآن، دعنا نعزفها لهؤلاء الذين لم يروا غزّة إلا على الشاشات، ونسوا أن فيها قلوبًا تنبض، وطفلاً اسمه أنطون، يقف الآن ليعلمهم البقاء."

سكتوا جميعًا، حتى بدا الصمت صلاةً.

ثم أخرج أنطون من جيبه رسائل صغيرة. لم تكن رسائل حرب، بل رسائل بقاء. قرأ الأولى:
"أبي... كنتَ تقول لي: الطبيب لا يعالج الجسد فقط، بل يُداوي أرواح المدن. وأنا أقول لك اليوم: سابقى، لأداوي ما تبقى من قلوب هذه المدينة."

ثم التفت نحو أمه:

"أمي، كنتِ تعلميننا أن الكلمة تصنع المعجزات. وأنا اليوم أكتب، لا لأنتصر، بل لأحيا. البقاء ليس ضعفًا، البقاء بطولة مكتوبة بحبر الألم."

ثم نحو أبونا حنًا:

"أبت، كنت تقول: الرب في القدس، لكنني وجدته في خيمةٍ بجوار البحر، حين اقتسمت خبزي مع طفلٍ لم يعرف والده أبدًا. الرب لا يسكن في القباب، بل في العيون التي ترفض أن تُطفأ."

ثم نظر نحو ماريًا، وكانت عيناها تدمعان:

"ماريًا... لا تعودِي إلى هناك، أبقى هنا. نحتاج صوتك. نحتاج أغنيةً تُهدد القلوب قبل أن تنام. لا تتركيني في هذا المخيم بدون قيثارتك."

ثم رفع أنطون رأسه، ونظر نحو الأفق الرمادي، حيث غزّة تلوّح لهم من بين الضباب، كأنها أمٌّ تتنادي أبناءها.

قال بصوتٍ صافٍ، كأن الريح قد غسلته:

"لقد علّمتني الكنيسة أن أصلي، لكنني في الخيام تعلّمت أن أعيش. البقاء هنا، ليس لأنه قدرنا، بل لأنه رسالتنا. سنبقى، لأن أرواحنا تثمر من رمادها. سنبقى، لأن القصص لم تنته بعد، ولأن في كل طفلٍ يولد في هذه الأرض، تبدأ معجزة جديدة."

صمتوا من جديد. ثم بدأت ماريًا تعزف لحنًا قديمًا، نشيدًا لا يُشبه أي نشيد، كأن القيثارة تبكي وتضحك في آن.

وقف الجميع.

أبونا حنا وضع يده على رأس أنطون وقال:

"اذهب يا بني، وافتح باب الكنيسة من جديد."

أبوه ضمّه وقال:

"كل شهقة في صدرك هي حياة لمدينة."

أمه قبّلته في جبينه وقالت:

"اذهب، لكن لا تنس أن تعود إليّ كل ليلة، في الحلم أو في الدعاء."

وماريا... عزفت.

وفي النهاية، فتح أنطون يديه كصليب، واستدار نحو الشمس، وقال:

"أنا ابن هذه الأرض، حفيد الجراح، وأخو الذين لم تُكتب أسماؤهم في كتب التاريخ. أنا فتى الكنيسة، وسأبقى."

وسمعت غزة صوته... فابتسمت

رواية هفتى الكنيسة، هي لشيد سردى شاعري
يحفر في ذاكرة الحرب والشتات، عبر سيرة أنطوان
الشاب الذي نشأ في الكنيسة وسط مدينة غزة،
قبل أن تبدأ رحلته القاسية في مخيمات النروج.
يحمل أنطوان في قلبه جرس الكنيسة، وفي عينيه إرث
جده من الكفاج والصلابة، ليتحول في المخيم
من لاجئ صامت إلى راوٍ لجراح الجماعة.. تلتقي في
خطاه حكايات الفقد، والجنون، والانتظار، والحلم.

